دورة الإبانة العلمية الأولى

شرح كتاب
تسلية أهل المصائب
لأبي عبد الله محمد بن محمد المنبجي
(٧٨٥ هـ)

رَحِمَهُ ٱللَّهُ





يسر إخوانكم القائمين على

موقع الإبانة السلفي

أن يعلنوا لكم عن

دورة الإبانة العلمية الأولى

في التعليق على أبواب وفصول مختارة من كتاب تسلية أهل المصائب لمحمد المنبجي

وفق البرنامج التالي

يوم السبت: الشيخ أزهر سنيقرة - حفظه الله

- الباب الأول: في المصيبة وحقيقتها وما أعد الله لمسترجعها
- الباب الثاني: في البكاء على المصيبة وما ذكر العلماء في ذلك
- الباب الثالث: في تحريم الندب والنياحة وشق الثياب

يوم الأحد: الشيخ حسن آيت علجت - حفظه الله

- الباب الرابع عشر: في فرح العبد وتسليته بكونه من أمة محمد ﷺ
- الباب السادس عشر: في وجوب الصبر على المصيبة

يوم الإثنين: الشيخ نجيب جلواح - حفظه الله

- الباب السابع عشر: فيما ورد بالصبر على المصيبة
- الباب الثامن عشر: في أن الشخص لا يستغني عن الصبر لا في المصيبة ولا في غيرها

يوم الثلاثاء: الشيخ سالم موريدة - حفظه الله

- الباب التاسع عشر: في أن الصبر من أشق الأشياء على النفوس
- الباب العشرون: في الرضا بالمصيبة

يوم الأربعاء: الشيخ عادل مقراني - حفظه الله

- الباب الحادي والعشرون: فيما يقدح في الصبر والرضا وينافيهما
- الباب الثاني والعشرون: هل المصائب مكفرات أم مثيبات

يوم الخميس: الشيخ سمير مرابيع - حفظه الله

- الباب التاسع والعشرون: في ذكر سعة رحمة الله ومن مات على التوحيد
- الباب الثلاثون: في فضل الزهد في الدنيا والتسلية عنها والرغبة في الآخرة

الإذاعة الرئيسة

جميع المحاضرات على الساعة

21:00 ليلا

elibana.org/home/radio

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المنفرد بالبقاء والقهر، الواحد الأحد الفرد الصمد ذي العزّة والسّتر الذي لا ند له فيُبارىٰ، ولا معارض له فيُمارىٰ، ولا شريك له فيُدارىٰ، كتب الفناء علىٰ أهل هذه الدّار، وجعل عُقبىٰ الذين اتّقوا الجنّة وعقبىٰ الكافرين النار.

قدّر مقادير الخلائق وأقسامها، وبعث أمراضها وأسقامها، وخلق الموت والحياة ليبلوهم أيّهم أحسن عملا، وجعل للذين أحسنوا الدرجات، وللذين أساؤوا الدّركات رحمة وعدلا، أحمده علىٰ حلو القضاء ومرّه، وأعوذ به من سطواته ومكره، واشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، إله لم يزل عظيما عليا، جبّارا قهّارا قويّا، جلّ عن التّشبيه والنّظير، وتعالىٰ عن الشّريك والظّهير، وتقدّس عن التّعطيل، وتنزّه عن التّمثيل، وأشهد أنّ محمّدًا عبده ورسوله، أرسله رحمة للعباد، ونقمة علىٰ الكفرة من أهل البلاد، فدعىٰ إلىٰ الجنّة، وأرشدهم إلىٰ اتباع السّنّة، وجعل أعلاهم منزلة أعظمهم صبرا، فمن استرجع في مصيبة واحتسبها ذُخرا، كان له منزلة عالية وقدرا، وكان مقتفيا هديا ومتبعا أثرا، صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وأصحابه وأزواجه وذريّاته الأخيار، وسلّم تسليما كثيرا مستمرّا متصلّا متعاقبا ما تعاقب الليل والنّهار، أما بعد:

فإن الله تعالىٰ جعل الموت محتوما علىٰ جميع العباد، فهو نهاية المرء وغاية الاقتصاد من دار الاعتداد، قضىٰ فأسقم الصحيح وعافىٰ السقيم، وقسم عباده قسمين طائع وأثيم، وجعل مآلهم إلىٰ دارين؛ دار النّعيم ودار الجحيم، فلا مفرّ لأحد من الموت ولا أمان، لقوله تعالىٰ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الرحمن].

فسوّىٰ فيه بين الحرّ والعبد، والصغير والكبير، والغنيّ والفقير، وكلّ ذلك بتقدير العليم الخبير ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ



يَسِيرٌ ﴿١١﴾ [فاطر]، فالكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والحازمُ من بادر بالعمل قبل حلول الفوت، والمسلم من استسلم للقضاء والقدر، والمؤمن من تيقّن بصبره الثّواب علىٰ المصائب والضّرر.

ولما كانت المصائب علىٰ اختلاف أنواعها من موت وغيره من نوائب الزمان، خطب مؤلم موجع، وأمر مهول مزعج، وردت الأحاديث والآثار بما لمن أصيب من المقامات، المحتسب الصّابر عليها ببشارة الجنّات، قال بعض السّلف: لولا مصائب الدّنيا لوردنا القيامة مفاليس، وما أحسن ما قال الشاعر:

المرء رهن مصائب ما تنقضي *** حتى يوسّد جسمه في رمسه

فمؤجّل يلقى الرّدى في غيره *** ومعجّل يلقى الرّدى في نفسه

فأحببت أن أجمع كتابا مسليّا لقلوب المحزونين ومفرّجا لكرب المَلْذوعِين وسمّيته: (كتاب تسلية أهل المصائب).

وكان سبب تأليف هذا الكتاب أنّه وقع طاعون في سنة خمس وسبعين وسبعمئة في رجب، واشتدّ في آخر شوّال والقعدة والحجّة، وخفّ في المحرّم من سنة ستٍّ.

ومات فيه الألوف من الناس، وخلت بيوت كثيرة، ومات فيه من الصّالحين والعبّاد خلق كثير، وسمّيته: طاعون الأخيار؛ لكثرة من مات فيه من أخيار النّاس، ولكن كان أكثره من الأطفال، حتىٰ كان جماعة من أصحابنا ممن له عدّة من الأولاد، فلم يبق له ولا ولد، وكنت قد جمعت كتابا في الطّاعون وأحكامه في سنة خمسٍ وستّين وسبعمئة، وهو كتاب حسن ما نظر فيه أحد إلا استحسنه، وقلّ ما خرج عنه من الأحاديث والآثار والتّواريخ، ولكن لم أذكر فيه ما أعدّ الله للمصابين فيه، فأفردت هذا الكتاب تسلية لمن أصيب بمصائب الدّنيا، وما رأيت

ولا سمعت أنّ أحدًا لم يصِب فيها بمصيبة، وبوبت هذا الكتاب ثلاثين بابا، وها أنا أذكرها أوّلا وبالله أستعين وعليه أتّكل:

الباب الأوّل: في المصيبة وحقيقتها وما أعدّ الله لمسترجِعها.

الباب الثاني: في البكاء على المصيبة وما ذكر العلماء في ذلك.

الباب الثّالث: في تحريم النّدب والنّياحة وشقّ الثياب.

الباب الرّابع: في من أصيب بفقد ثلاثة من الولد فأكثر.

الباب الخامس: في من أصيب بفقد ولدين.

الباب السّادس: في من أصيب بفقد ولد واحد.

الباب السّابع: في ذكر السّقط وثوابه، وزيارة القبور.

الباب الثامن: في تطييب خاطر الوالدين على الأولاد.

الباب التّاسع: فيمن مات له طفل رضيع أنّه يكمل رضاعه في الجنّة.

الباب العاشر: في أنّه يُصلّى على كلّ مولود ويُدعى لوالديه.

الباب الحادي عشر: في استحباب اصطناع الطّعام لأهل المصيبة.

الباب الثّاني عشر: في كراهة الذبح عند القبور وصنع الطّعام من أهل الميّت.

الباب الثّالث عشر: في الثّناء الحسن على الميّت وذكر محاسنه والسّكوت عن مساويه.

الباب الرّابع عشر: في فرح العبد وتسليته لكونه من أمّة محمد ﷺ.

الباب الخامس عشر: في استحباب التعزية لأهل المصيبة والدّعاء لميّتهم.

الباب السادس عشر: في وجوب الصّبر على المصيبة.

الباب السابع عشر: فيما ورد في الصّبر على المصيبة.

الباب الثّامن عشر: في أنّ الشّخص لا يستغنى عن الصّبر لا في المصيبة ولا في غيرها.



الباب التّاسع عشر: في أنّ الصّبر من أشقِّ الأشياء علىٰ النّفوس.

الباب العشرون: في الرّضا بالمصيبة.

الباب الحادي والعشرون: فيما يقدح في الصّبر والرِّضا وينافيهما.

الباب الثّاني والعشرون: هل المصائب مكفِّرات أو مثيبات؟

الباب الثّالث والعشرون: في الصّبر عن المصاب به وأفعال البرِّ عنه.

الباب الرّابع والعشرون: في ذكر عمارة القبور.

الباب الخامس والعشرون: في أنّ الله يثبِّتُ الذين آمنوا عند المُساءلة.

الباب السّادس والعشرون: في اجتماع الأرواح وهيئاتها وأين محلّها.

الباب السّابع والعشرون: في عدِّ الشّهداء وفضلهم وأنّهم أرفع درجات من الصّالحين.

الباب الثّامن والعشرون: في ذكر الصراط ودرجات النّاس في المرور عليه.

الباب التّاسع والعشرون: في ذكر التوحيد وسعة رحمة الله.

الباب الثّلاثون: في فضل الزّهد في الدنيا والتّسلية عنها والرّغبة في الآخرة.

فهذه نهاية الأبواب الآتي بعدها حسن الخطاب، وهي بِضاعة أخيك المزجاة، وسلعته المرماة، تعرض عليك، وتُساقُ منه إليك، فلِقارئه غنمة، ولأخيك غرمة.

وما أذكره من التّرغيب والتّرهيب من الكتاب والسّنّة والآثار والتّفسير وغير ذلك بإسناد وغير إسناد غالبا خشية التّطويل، ولكنّه يعزو إلىٰ رواته من حفّاظ الإسلام، مشيرا إلىٰ التّصحيح والتّضعيف في بعض ما أمكن من الأحاديث، وكان الاجتهاد في ذلك أنّي رأيت -يا أخي- أنّك إذا متَّ سَلاكَ أحبابك، وهجرك أصحابك، وأعرض عنك من أنفقت عمرك في محبّته، وأتعبت نفسك وبدنك في ملاطفته، فهذا لا يخفىٰ عليك ولا علىٰ من له أدنىٰ فطنة، فإنّك إذا أردت أن تعرف صدق هذه المقالة بوجه صحيح، وكلام فصيح، فاذكر فعلك فيمن كان يُحبك من

أب وأم، وأخ وصديق، ألست قد سَلَيْتَهُم وتبدَّلتَ سواهم، فكذا أنت بعد موتك.

فأردت جمع هذا الكتاب ليكون سببا لسُلُوِّ الشّخص عن الدنيا، ومُرغبا له في الأخرىٰ، فهو بحمد الله فيه من الفوائد التي لا يظفر بها كتاب سواه، فما كان فيه من صواب فمن الله ورسوله، وما كان فيه من خطأ فمني ومن الشيطان.

والله سبحانه المسؤول أن يوفّقني لإتمامه، بفضله وامتنانه، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفعَ به مؤلِّفه وكاتبه وقارئه وسامعه.

إنّه سمييع قريب وهو حسبنا

ونعم الوكيل.





﴿ الباب الأول ﴾

في المصيبة وحقيقتها وما أعدّ الله لمسترجعها

قال الله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾[**البقرة**].

قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «نِعم العدلان ونعمت العلاوة، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞ﴾». ذكره البخاري تعليقـاً.

وقال تعالىٰ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ﴾ [**التغابن**:١١]، قال علقمة وجماعة من المفسرين: «هي المصائب تصيب الرّجل فيعلم أنّها من عند الله فيرضىٰ ويسلّم».

والآيات في هذا الباب كثيرة.

قال أهلُ اللّغة: يُقال مُصيبة ومُصابة ومَصوبة، قالوا: وحقيقته الأمر المكروه يحل بالإنسان.

وقال القرطبي: «المصيبة: كل ما يؤذي المؤمن ويصيبه»، يقال: أصابه إصابة ومُصابة وصَابَة، والمصيبة واحدة المصائب، والمصوبة بضم الصاد مثل المصيبة.

وأجمعت العرب علىٰ همز المصائب، وأصله الواو، وكأنهم شبهوا الأصل بالزّائد، ويجمع علىٰ مَصاوب، وهو الأصل، وعلىٰ مَصائب.

والمُصاب: الإصابة.

قال الشاعر:

أسليم إنّ مصابكم رجلاً *** أهدىٰ السّلام تحيّةً ظلم

وصاب السّهم القرطاس يُصيبه صيباً: لغة في أصابه.

والمصيبة: النّكبة ينكبها الإنسان وإن صغرت، وتستعمل في الشر.

و «روىٰ عكرمة مرسلاً: إنّ مصباح النبيّ ﷺ انطفأ ذات ليلة، فقال: «**إنا لله وإنا إليه راجعون**»، فقيل: أمصيبة هي يا رسول الله؟ قال: «**نعم! كلّ ما آذىٰ فهو مصيبة**» .

وفي صحيح مسلم، من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقول: «**ما يصيب المؤمن من وَصَبٍ ولا نَصَبٍ ولا سقم ولا حُزن، حتىٰ الهمّ يهمه، إلا كفر الله به من سيئاته**» .

والوَصبُ: المرض، والنّصب: التّعب.

وفي الصّحيحين، عن عروة، عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفر الله عَزَّوَجَلَّ بها عنه حتىٰ الشّوكة يُشاكها**».

وقال الإمام أحمد: «ثنا يونس، ثنا ليث - يعني ابن سعد -، عن يزيد ابن عبد الله، عن عمرو، بن أبي عمرو، عن المطلب، عن أم سلمة، قالت: أتاني أبو سلمة يومًا من عند رسول الله ﷺ، فقال: لقد سمعت من رسول الله ﷺ قولاً سُررتُ به، قال: «**لا تُصيب أحداً من المسلمين مصيبةٌ فيَسترجع عند مُصيبته ثم يقول: اللهم أجُرني في مصيبتي، وأخلف لي خيراً منها، إلا فعل ذلك به**».

قالت أم سلمة: فحفظتُ ذلك منه فلما توفي أبو سلمة استرجعت في مصيبتي وقلت: اللهم أجرني في مصيبتي وأَخْلِفْ لي خيراً منه - وفي لفظ: خيراً منها - ثم رجعت إلىٰ نفسي وقلت: من أين خير لي من أبي سلمة؟ فلما انقضت عدّتي، استأذن عليَّ رسولُ الله ﷺ، وأنا أدبغ إهابًا لي، فغسلتُ يدي من القَرظ وأذنت له، فوضعتُ له وسادة من أدم حشوها لِيف، فقعد عليها، فخطبني إلىٰ نفسي، فلما فرغ من مقالته قلت: يا رسول الله، ما بي أن لا تكون بك الرّغبة، ولكني امرأة في غَيْرَةٍ شديدة، فأخاف أن ترىٰ منّي شيئًا يُعذّبني الله به، وأنا امرأة قد دخلت في السّنّ، وأنا ذاتُ عِيال، فقال: أمّا ما ذكرتِ من الغَيرة فسوف يُذهبها الله عَزَّوَجَلَّ عنك، وأمّا ما ذكرتِ من السن فقد أصابني مثلُ ما أصابك، وأمّا ما ذكرتِ



من العيال فإنّما عِيالك عِيالي، قالت: فقد سلّمت لرسول الله ﷺ، فتزوّجها رسولُ الله»، فقالت أم سلمة بعد: أبدَلني الله بأبي سلمة خيراً منه: رسول الله ﷺ.

وقد رُوِيَ هذا الحديث بعدّة طُرقٍ في الصّحاح والمَسانيد، وسيأتي فيما بعد إن شاء الله تعالىٰ.



﴿فصل﴾

في تسلية أهل المصائب بالعلاج الإلهي والنبوي

فالإلهيُّ: قوله تعالىٰ: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾[البقرة]، وآيات الصّبر كثيرة جداً.

والنّبويّ: قوله ﷺ: «**ما من مسلم تُصيبه مصيبة فيقول ما أمره اللهُ به: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجُرني في مصيبتي وأَخلِف لي خيراً منها، إلا آجَرَهُ الله في مصيبته، وأَخلف الله له خيراً منها**». وقد تقدم.

وأمثال ذلك من الأحاديث.

وقد تضمنت هذه الكلمة - «إنا لله وإنا إليه راجعون» - علاجاً من الله ورسولُه لأهل المصائب؛ فإنّها من أبلغِ علاج المصائب وأنفعه للعبدِ في عاجِله وآجلِه، فإنّها تتضمّن أصلين عظيمَيْن إذا تحقّق العبد بمعرفتهما وتسلّىٰ عن مصيبته.

أحد الأصلين: أن يتحقّق العبد أنّ نَفسَه وأهلَه ومالَه وولدَه ملك لله عَزَّوَجَلَّ حقيقةً، وقد جعله الله عند العبدِ عاريةً، فإذا أَخَذَه منه فهو كالمُعير يأخذ عارِيتَه من المُستعير.

وأيضاً: فإنّه محفوفٌ بعدمين؛ عدم قبله وعدم بعده، وملك العبد له متعة معارة في زمن يسير، وأيضاً: فإنه ليس هو الذي أوجده من عدم، حتىٰ يكون ملكه حقيقةً ولا هو الذي يحفظه من الآفات بعد وجوده فليس له فيه تأثير ولا ملك حقيقي.

وأيضاً فإنّه متصرِّف فيه بالأمر، تصرف العبد المأمور المنهي، لا تصرف الملاك، ولهذا لا يباح له من التصرفات فيه إلا ما وافق أمر مالكه الحقيقي.

والثاني: أن مصير العبد ومرجعه إلىٰ الله مولاه الحق، ولابد أن يخلف الدنيا



وراء ظهره، ويأتي ربه يوم القيامة فرداً، كما خلقه أول مرة، بلا أهل ولا مال ولا عشيرة، ولكن يأتيه بالحسنات والسيئات.

فإذا كانت هذه بداية العبد وما خوله، ونهايته وحاله فيه فكيف يفرح العبد بولد أو مال أو غير ذلك من متاع الدنيا ؟! أم كيف يأسىٰ علىٰ مفقود؟!

ففكرة العبد في بدايته ونهايته من أعظم علاج المصائب، ومن علاجه أن يعلم علم اليقين أنّ ما أصابه لم يكن ليُخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

قال تعالىٰ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٢٢ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ٢٣﴾ [**الحديد**]، ومن تأمّل هذه الآية الكريمة وجد فيها شفاءَ أو دواءَ المصائب، وكل ما ذكرناه في هذا الفصل، فهو في هذه الآية، فتدبر ذلك.





﴿ فصل ﴾

في النّظر في كتاب الله تعالىٰ وسنّة رسوله

ومن تسلية أهل المصائب: أن ينظر المصاب في كتاب الله وسنة رسول الله، فيجد أن الله تعالىٰ أعطىٰ - لمن صبر ورضي - ما هو أعظم من فوات تلك المصيبة بأضعاف مضاعفة، وأنّه لو شاء لجعلها أعظم مما هي.

ومن أنفع الأمور للمصاب: أن يطفئ نار مصيبته ببرد التأسي بأهل المصائب، وليعلم أنّه في كلِّ قرية ومدينة بل في كلِّ بيت من أصيب، فمنهم من أصيب مرةً، ومنهم من أصيب مراراً، وليس ذلك بمنقطع حتىٰ يأتي علىٰ جميع أهل البيت، حتىٰ نفس المصاب، فيصاب، أسوة بأمثاله ممن تقدّمه، فإنّه إن نظر يَمنةً فلا يرىٰ إلا محنةً، وإن نظر يسرةً فلا يرىٰ إلا حسرةً.

وذكر أبو الفرج بن الجوزي بإسناده عن عبد الله بن زياد، قال: حدثني بعض من قرأ في الكتب: «أن ذا القرنين، لما رجع من مشارق الأرض، ومغاربها، وبلغ أرض بابل، مرض مرضًا شديداً، فلما أشفق أن يموت، كتب إلىٰ أمه: يا أماه، اصنعي طعامًا، واجمعي من قدرت عليه، ولا يأكل طعامك من أصيب بمصيبة، واعلمي هل وجدت لشيء قراراً باقيًا، وخيالاً دائمًا؟ ! إنّي قد علمت يقينًا، أنّ الذي أذهب إليه خير من مكاني، قال: فلمّا وصل كتابه، صنعت طعامًا، وجمعت الناس، وقالت: لا يأكلّ هذا من أصيب بمصيبة، فلم يأكلوا، فعلمت ما أراد، فقالت: من يبلغك عني أنّك وعظتني فاتعظت، وعزيتني فتعزيت، فعليك السلام حيّا وميتًا».

فإذا علم المصاب أنه لو فتّش العالم، لم ير فيهم إلا مبتلىٰ، إما بفوات محبوب، أو حصول مكروه، فسرور الدنيا أحلام نوم، أو كظلٍّ زائل، إن أضحكتْ قليلا أبكت كثيراً، وإن سرّتْ يومًا ساءتْ دهراً، وإن متّعتْ قليلاً منعتْ طويلاً،



وما ملأتْ داراً حبرةً إلا مَلأتْها عبرةً، وما حصّلتْ للشخص في يوم سروراً، إلا خبّأتْ له في يوم شروراً.

قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لكل فرحة ترحة، وما مُلِئَ بيتٌ فرحًا إلا ملئ ترحًا».

وقال ابن سيرين رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما كان ضحكٌ قط إلا كان بعده بكاء».

فلْيعلم العبد أنّ فوت ثواب الصّبر والتّسليم هو الصّلاة والرّحمة والهداية في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة].

وقد تقدم ذلك، فما ضمنه الله علىٰ الصبر والاسترجاع، أعظم من المصيبة في الحقيقة، والله أعلم.



﴿ فصل ﴾

في أن مرارة الدنيا هي حلاوة في الآخرة

ومن تسلية أهل المصائب: أن ينظر العبد بعين بصيرته، فيعلم أن مرارة الدّنيا هي بعينها حلاوة في الآخرة، يقبلها الله تعالىٰ، وحلاوة الدنيا هي بعينها مرارة في الآخرة، ولأن ينتقل من مرارة منقطعة إلىٰ حلاوة دائمة، خير من عكس ذلك، فإن خفي عليك ذلك فانظر إلىٰ قول الصّادق المصدوق، وهو قوله ﷺ: «**حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات**»، وكذلك قوله في الصحيح: «**يؤتىٰ يوم القيامة بأنعم أهل الدنيا من أهل النار، فيصبغ في النار صبغةً، ثم يقال: يا ابن آدم هل رأيت خيراً قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يا رب، ويؤتىٰ بأشد الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة، فيصبغ في الجنة صبغة، فيقال له: يا ابن آدم، هل رأيت بؤساً قط؟ هل مر بك شدة قط؟ فيقول لا والله يا رب**»، الحديث.

وهذا المقام تتفاوت فيه عقول الناس، وتظهر حقائق الرجال، فأكثر أهل زماننا يؤثر الحلاوة المنقطعة علىٰ الحلاوة الدائمة التي لا تزول، ولم يتحمّل مرارة ساعة لحلاوة الأبد، ولا ذلّ ساعةً لعزِّ الأبد ولا محنة ساعة لعافية الأبد، فإن الحاضر عنده شهادة، والمنتظر غيب، والإيمان ضعيف، وسلطان الشّهوة حاكم، فتولّد من ذلك إيثار العاجلة ورفض الآخرة، وهذا حال النّظر، الواقع علىٰ ظواهر أكثر أهل زماننا في أوائل أمورهم ومبادئها، وما ذاك إلا لحبهم هذه الحياة الدنيا.

قال وهب بن منبه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كان عيسىٰ ابن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يقول: بحقّ أقول لكم: إنّ أشدّكم حباً للدنيا أشدكم جزعاً علىٰ المصيبة».

وأما النظر الثاقب الذي يخرق حجب العاجل، ومحاورة العواقب والغايات، فله شأن آخر، فادع نفسك إلىٰ ما أعد الله لأوليائه وأهل طاعته من النعيم المقيم،



والسّعادة الأبديّة والفوز الأكبر وما أعدّ الله لأهل البطالة والإضاعة من الخزي والخسران والعذاب الدّائم، ثمّ اختر أيّ القسمين أليَق بك، وكلٌّ يعمل على شاكلته، وكلٌّ أحد يذهب إلىٰ ما يناسبه وما هو الأولىٰ به، وهذا نصح أخيك فيما يحسن بك ويُسَلِّيك.





﴿ فصل ﴾

في الاستعانة بالله والاتكال عليه والعزاء بعزائه

ومن تسلية أهل المصائب: أن يستعينوا بالله ويتّكلوا عليه، ويتعزّوا بعزاء الله تعالىٰ، ويمتثلوا أمره في الاستعانة بالصبر والصلاة، ويعلموا أنّ الله مع الصّابرين، ويطلبوا استنجاز ما وعد الله به عباده علىٰ الصّبر.

وفي حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: ألا أحدّثكم بحديث لا يحدّثكم به أحدٌ غيري؟ كنّا عند رسول الله ﷺ جلوسًا، فضحِك، فقال: «**تدرون ممّا ضحكتُ؟**»، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**عجبتُ للمؤمن أن الله** عَزَّوَجَلَّ **لا يقضي له قضاءً إلّا كان خيرا له**»، وذكر ابن أبي الدّنيا بإسناده قال: قال إبراهيم بن داود: «قال بعض الحكماء: إنّ لله عبادًا يستقبلون المصائب بالبشر، قال: فقال أولئك الذين صفت من الدّنيا قلوبهم، ثمّ قال: قال وهب بن منبّه: وجدت في زبور داود: قال بعض الحكماء: إنّ لله عبادا يستقبلون المصائب بالبشر، قال: فقال أولئك الذين صفت من الدّنيا قلوبهم، ثم قال: قال وهب بن منبه: وجدت في زبور داود يقول الله تعالىٰ: «يا داود هل تدري من أسرع النّاس ممرًّا علىٰ الصّراط الذين يرضون بحكمي وألسنتهم رطبة من ذكري».

فالمؤمن الموفّق - نسأل الله تعالىٰ حسن التّوفيق - من يتلقّىٰ المصيبة بالقبول، ويعلم أنّها من عند الله لا من عند أحدٍ من خلقه، ويجتهد في كتمانها ما أمكن.

قال عبد العزيز بن أبي روّاد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ثلاثة من كنوز الجنّة: كتمان المصيبة، وكتمان المرض، وكتمان الصّدقة».

وقال بعض السّلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ثلاثة يُمتحن بها عقول الرّجال: كثرة المال،

والمصيبة، والولاية».

وقال عبد الله بن محمد الهروي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من جواهر البرّ كتمان المصيبة حتّىٰ يُظنّ أنّك لم تُصَب قط».

وقال عون بن عبد الله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الخير الذي لا شرّ معه، الشّكر مع العافية، والصّبر مع المصيبة».



﴿ فصل ﴾

ومن أعظم المصائب المصيبة في الدّين، فهي من أعظم مصائب الدّنيا والآخرة وهي نهاية الخُسران الذي لا رِبح معه، والحِرمان الذي لا طمع معه، وقد حكىٰ ابن أبي الدّنيا رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن شُريح أنه قال: «إني لأُصاب بالمصيبة فأحمد الله عليها أربع مرّات، وأشكره إذ لم تكن أعظمَ مما هي، وإذا رزقني الصّبر عليها، وإذ وفقني لاسترجاع لما أرجوه فيه من الثّواب، وإذ لم يجعلها في ديني».

ومن أعظم المصائب في الدّين موتُ النبيّ ﷺ؛ لأنّ المصيبة به أعظم من كلّ مصيبة يُصاب بها المسلم؛ لأنّ بموته ﷺ انقطع الوحي من السماء إلىٰ يوم القيامة، وانقطعت النبوات، وكان موته أولَ ظهور الشر والفساد، بارتداد العرب عن الدّين، فهو أول انقطاع عُرىٰ الدين ونقصانه، وفيها غاية التسلية عن كل مصيبة تصيب العبد، وغير ذلك من الأمور التي لا أحصيها.

قال أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «ما نفضنا أيدينا من التراب من قبر رسول الله ﷺ، حتىٰ أنكرنا قلوبنا». رواه ابن ماجه.

وإذا أردت أن تعلم أن المصيبة به ﷺ أعظمُ من كل مصيبة حدثت في الدين، فانظر إلىٰ ما روي عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: أن رسول الله ﷺ قال: «**أيها الناس أيُّما أحد من الناس أو من المؤمنين أصيب بمصيبة فليتعزىٰ بمصيبته بي عن المصيبة التي تصيبه بغيري، فإن أحداً من أمتي لن يُصاب بمصيبة بعدي أشد عليه من مُصيبتي**». وهذا من رواية موسىٰ بن عبيده، وقد أضعفه غير واحد من الأئمة.

لكن روىٰ أبو عمر بن عبد البر بإسناده، من حديث عطاء بن أبي رباح مرسلاً، أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا أصاب أحدَكم مصيبةٌ فلْيذكر مُصابَه بي، فإنّها من أعظم المَصائب**». رواه الحافظ أبو نعيم من هذه الطريق أيضاً، ومن طريق أخرىٰ، عن مكحول مرسلاً، نحوه.



ولقد أحسن أبو العتاهيه في نظمه موافقاً لهذا الحديث، حيث يقول:

اصبر لكل مصيبةٍ وتجلد ❊❊❊ واعلم بأن المرء غير مخلد

أو ما ترى أن المصائب جمة ❊❊❊ وترى المنية للعباد بمرصد

من لم يصب ممن ترى بمصيبة ❊❊❊ هذا سبيل لست عنه بأوحد

فإذا ذكرت محمداً ومصابه ❊❊❊ فاجعل مصابك بالنبي محمد

وفي رواية:

وإذا ذكرت مصيبة تسلو بها ❊❊❊ فاذكر مصابك بالنبي محمد

وإذا أردت أن تعلم تغير الأحوال بموت النّبيّ ﷺ، فاذكر قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ﴾[آل عمران:١٤٤] الآية، ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ﴾ شرط ﴿أَوْ قُتِلَ﴾ عطف عليه، والجواب: ﴿ٱنقَلَبْتُمْ﴾ ودخل ألف الاستفهام على حرف الجرّ؛ لأنّ الشّرط قد انعقد به، وصار جُملة واحدةً، وخبراً واحداً، والمعنى: أفتنقلبون على أعقابكم إن مات أو قتل؟ يقال لمن عاد إلى ما كان عليه، انقلب على عقبيه، وقيل: المعنى فعلتم فعل المرتدين، ومنه انقلب على عقبيه، وقول أنس وقد تقدم.

وروى ابن ماجه، من حديث أم سلمة - زوج النبي - ﷺ قالت: كان الناس، على عهد رسول الله ﷺ، إذا قام المصلّي لم يعد بصر أحدهم موضع قدميه، فتوفي رسول الله ﷺ، وكان أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فكان الناس، فإذا قام أحدهم يصلي لم يعد بصر أحدهم موضع القبلة، فتوفي أبو بكر وكان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فكان الناس، إذا قام أحدهم يصلي، لم يعد بصر أحدهم موضع القبلة، فكان عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فكانت الفتنة، فتلفّت الناس في الصلاة يميناً وشمالاً. وإسناده مقارب.

والمقصود أنّ المصائب تتفاوت، فأعظمها المصيبة في الدّين - نعوذ بالله من ذلك - هي أعظم من كلّ مصيبة يُصاب بها الإنسان، يؤيّد ذلك أنّه قد جاء في

بعض الآثار، أن النبي ﷺ قال: «**المسلوب من سلب دينه، والمحروم من حرم الأجر**»، ثم بعد مصيبة الدّين المصيبة في النّفس، ثم في المال، أمّا المال فيخلفه الله تعالىٰ وهو فداء الأنفس، والنفس فداء الدين، والدين لا فداء له، قال تعالىٰ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٢٢﴾ [**الحديد**]



﴿ فصل ﴾

في البشارة لمن تذكر المصيبة فاسترجع

ومن أعظم البشارات لمن أُصيب بمصيبة، فذكرها بعد مدّة طويلة، فجدّد لها استرجاعًا وصبراً، ماله عند الله من الأجر كلّما ذكرها واسترجع، قال الإمام أحمد في مسنده: «ثنا يزيد وعباد بن عباد، قالا: حدثنا هشام ابن أبي هشام، ثنا عباد ابن زياد، عن أمّه، عن فاطمة بنت الحسين عن أبيها الحسين ابن علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، عن النّبيّ ﷺ قال: «**ما من مسلم ولا مسلمة، يُصاب بمصيبة، فيذكرها وإن طال عهدها** - قال عبّاد: قدم عهدها - **فيُحدِثُ لذلك استرجاعًا، إلّا جدّد الله له عنه ذلك، فأعطاه مثل أجرها يوم أصيب بها**»، ورواه ابن ماجة من حديث فاطمة بنت الحسين - أيضًا - ولفظه: إنّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**من أُصيبَ بمُصيبةٍ، فذكر مُصيبَته، فليُحدِث استرجاعًا وإن تقادم عهدُها، كتبَ الله له من الأجر مثلُه يوم أصيب**». لكن في إسناده مقال، قال سعيد بن جبير: ما أُعطيَ أحد في المصيبة ما أعطي هذه الأمة - يعني ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ - ولو أعطيَ أحد لأعطي نبيَّ الله يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، ألم تسمع إلىٰ قوله في فقد يوسف: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف:٨٤]، أولئك - أصحاب هذه الصفة - ﴿عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ  ١٥٧﴾ [البقرة] .

❁ ❁ ❁

﴿ الباب الثاني ﴾

في البكاء على المصيبة وما ذكر العلماء في ذلك

البكى أصله بكوى على فعول، قال الجوهري: «البكاء يمد ويقصر، فإذا مددت أردت الصوت الذي يكون مع البكاء، وإن قصرت أردت الدموع وخروجها، وبكيت الرجل وبكيته إذا بكيت عليه».

قال الشاعر:

بكت عيني وحُق لها بكاها *** وما يغني البكاء ولا العويل

هذا من جهة اللغة، وهو رقة ورحمة في قلوب عباد الله، فالبكاء على الميّت في مذهب الإمام أحمد وأبي حنيفة: جوازه قبل الميت وبعده، واختاره أبو اسحاق الشيرازي، وكرهه الشافعي وكثير من أصحابه بعد الموت، ورخّصوا فيه قبل خروج الروح.

واحتجّوا بحديث جابر عن عتيك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنّ رسول الله ﷺ جاء يعود عبد الله بن ثابت، فوجده قد غلب، فصاح به رسول الله ﷺ، فلم يُجبْه، فاسترجع، وقال: «**غلبنا عليك يا أبا الربيع**»، فصاح النّسوة وبكين، فجعل ابن عتيك يُسكتهنّ، فقال رسول الله ﷺ: «**دعهنّ، فإذا وجب فلا تبكين باكية**»، قالوا: وما الواجب يا رسول الله؟ قال: «**الموت**». رواه الإمام أحمد وأبو داود، وهذا لفظه، والنسائي وابن ماجة.

قالوا: وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبيَّ ﷺ قال: «**إنّ الميّت ليُعذَّب ببكاء أهله عليه**»، وهذا إنّما هو بعد الموت، وأما قبله فلا يسمى ميتًا .

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أيضًا -، أنّ رسول الله ﷺ لما قدم من أحد، سمع نساءً من بني عبد الأشهل، على هلكاهن يبكين، فقال رسول الله ﷺ: «**لكن حمزة**



لا بواكيَ له»، فجئن نساء الأنصار، فبكين على حمزة عنده، فاستيقظ رسول الله ﷺ، فقال: «**ويحهنّ إنّهن ههنا يبكين؟ ما أثقلهن! مروهن فليرجعن ولا يبكين على هالك بعد اليوم**» رواه الإمام أحمد وابن ماجة.

وهذا صريح في نسخ الإباحة المتقدّمة، والفرق بين ما قبل الموت وبعده، أنه قبل الموت يرجى فيكون البكاء عليه حذراً، فإذا مات انقطع الرجاء وأبرم القضاء، فلا ينفع البكاء.

احتج أصحابنا ومن قال بقولهم، ممن جوز البكاء قبل الموت وبعده، قال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أصيب أبي يوم أحد، فجعلت أكشف الثوب عن وجهه وأبكي، فجعلوا ينهوني، ورسول الله ﷺ لا ينهاني، فجعلت عمتي فاطمة تبكي، فقال النبي ﷺ: «**تبكين أو لا تبكين، ما زالت الملائكة تُظلّه بأجنحتها حتى رفعتموه**» متفق عليه.

وعن ابن عمر قال: اشتكى سعد بن عباده شكوى له، فأتاه النبي ﷺ يعوده مع عبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن مسعود، فلمّا دخل عليه، فوجده في غاشية، فقال: قد قضى؟ قالوا لا يا رسول الله، فبكى النّبي ﷺ، فلمّا رأى القوم بكاءَ رسول الله بكوا، فقال: «**ألا تسمعون، أن الله لا يُعذِّب بدمع العين ولا بحزن القلب، ولكن يعذب بهذا - وأشار إلى لسانه - أو يرحم**» رواه البخاري، وهذا لفظه، ومسلم وعنده: وجده في غشيّة، فقال: «**أقد قضى؟**» قالوا: لا يا رسول الله.. » الحديث، وهو من رواية يونس بن عبد الأعلى.

وعن أسامة بن زيد، قال: كنا عند النّبيّ ﷺ، فأرسلتْ إليه إحدى بناته تدعوه، وتخبره أنّ صبياً أو ابناً لها في الموت، فقال الرسول: «**ارجع إليها فأخبرها أن لله عَزَّوَجَلَّ ما أخذ، وله ما أعطى، وكلُّ شيء عنده بأجل مسمّى، فمُرها لتصبر ولتحتسب**»، فعاد الرّسول فقال: إنها قد أقسمت لتأتينها، قال: فقام النبي ﷺ، وقام معه سعدُ بنُ عبادة، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وانطلقت

معهم، فرُفع إليه الصبي ونفسه تَقَعْقَعُ، كأنها في شَنَّةٍ، ففاضت عيناه، فقال له سعدُ بنُ عبادة: ما هذا يا رسول الله؟ قال: «**هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء**» رواه البخاري ومسلم.

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: شهدنا بِنتًا لرسول الله ﷺ قال: ورسول الله ﷺ جالس علىٰ القبر، قال: فرأيتُ عيناه تدمعان، قال: فقال: «**هل منكم من رجل لم يقارف الليلة؟**» فقال أبو طلحة: أنا، قال: «**فانزل في قبرها**» رواه البخاري.

وعن أنس - أيضًا - قال: قال: رسول الله ﷺ: «**ولد لي غلام فسمّيته باسم أبي إبراهيم**»، فذكر الحديث، ثم دخلنا عليه بعد ذلك وإبراهيم يجود بنفسه، فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان، وفي لفظ: فأخذه فوضعه في حجره، وقال: «**يا بني، لا أملك لك من الله شيئًا**»، فقال عبد الله بن عوف وأنس: يا رسول الله أتبكي وتنهىٰ عن البكاء؟ فقال: «**يا بن عوف، إنّها رحمةٌ ومن لا يرحم لا يرحم**»، ثم أتبعها بأخرىٰ فقال: «**إن العينَ تدمع، والقلبَ يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربّنا، وإنا لِفراقك يا إبراهيمُ لمحزونون**» رواه البخاري ومسلم بدون زيادة الألفاظ، وفيه دليل علىٰ البكاء قبل الموت.

وعن أنس - أيضًا - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذها عبد الله بن رواحة فأصيب، ثم أخذها جعفر فأصيب، وإنّ عيني رسول الله ﷺ لتذرفان، ثمّ أخذها خالد بن الوليد من غير إمرة ففتح له**» رواه البخاري.

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: ماتت زينبُ بنت رسول الله ﷺ، فبكت النساء، فجعل عمر يضربُهنّ بسوطه، فأخذ رسول الله ﷺ بيده، وقال: «**مهلاً يا عمر، ثم إياكن ونعيق الشيطان**»، ثم قال: «**إنّه مهما كان من العين والقلب فمن الله** عَزَّ وَجَلَّ **ومن الرّحمة، وما كان من اليد واللّسان فمن الشّيطان**» رواه الإمام أحمد.

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنّ سعد بن معاذ، لمّا مات، حضره رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالت: «فو الذي نفسي بيده، إنّي لأَعرف بكاء أبي بكر من بكاء عمر



وأنا في حجرتي» رواه الإمام أحمد.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ كان في جنازة، فرأىٰ عمر امرأة فصاح بها، فقال النبي ﷺ: «**دعها يا عمر، فإنّ العينَ دامعة، والنفس مصابة، والعهد قريب**» رواه ابن ماجه.

وعن أسماء بنت يزيد، قالت: لمّا توفي ابن رسول الله ﷺ إبراهيم بكي رسول الله ﷺ، فقال: - إما أبو بكر وإما عمر -: أنت أحقّ من عظم لله حقّه! فقال رسول الله ﷺ: «**تدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول ما يسخط الرب، لولا أنه وعد صادق، وموعد جامع، وأن الآخر تابع للأول، لوجدنا عليك يا إبراهيم أفضل ما وجدنا، وإنا بك لمحزنون**» رواه ابن ماجه.

وفي لفظ: أتبكي، أو ما نهيتنا عن البكاء؟ قال: «**ليس عن البكاء نهيت ولكن نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين، صوت عند نغمة لهو ولعب ورنة شيطان، وصوت عند مصيبة، لطم وجوه وشق جيوب ورنة شيطان، وهذه رحمة، ومن لايرحم، يا إبراهيم، لولا أنه أمر حق، ووعد صادق، وسبيل لابد نأتيه، وأن آخرنا سوف يلحق بأولنا، لحزنا عليك حزنًا هو أشد من هذا، وإنا بك لمحزونون**».

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، ثنا حماد بن سلمة، عن عليّ بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: ماتت زينبُ ابنة رسول الله ﷺ، فبكت النساء، فجعل عمر يضربهن بسوطه، فأخذ رسول الله ﷺ، ثم قال: «**مهلاً يا عمر ثم قال: ابكين، وإياكن ونعيق الشيطان، ثم إنه مهما كان من العين والقلب فمن الله عز وجل**»، وذكر تمام الحديث وقد تقدم.

وروىٰ الإمام أحمد - أيضًا - بسنده، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: ماتت رقية بنتُ رسول الله ﷺ فقال: «**الحقي سلفنا الخير عثمان بن مظعون**»، وبكت النساء، فجعل عمر يضربهن بسوطه، فقال النّبيّ ﷺ لعُمرَ: «**دعهنّ يبكين، وإيّاكن ونعيق الشّيطان**»، ثم قال رسول الله ﷺ: «**مهما يكن من القلب والعين، فمن الله والرّحمة،**

ومهما كان من اليد واللسان، فمن الشيطان»، وقعد رسولُ الله ﷺ علىٰ شفير القبر وفاطمة إلىٰ جنبه تبكي، فجعل النبيّ ﷺ يمسح عين فاطمة بثوبه رحمة لها».

فقد ثبت في حديث موت زينب ورقية بنتي رسول الله ﷺ البكاء بعد الموت.

وقد جاء في آثار جمّة: «أنه ﷺ زار قبر أمّه فبكىٰ وأبكىٰ من حوله».

وصح عنه ﷺ: «**أنّه قبّل عثمان بنَ مَظْعُون حتىٰ سالت دمُوعُه علىٰ وجهه**».

وتقدم قصة جعفر وعبد الله بن رواحة وأصحابهما.

وكذلك صح عن أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنّه قبّل النبيَّ ﷺ وهو ميّت، وبكىٰ وأبكىٰ.

وكذلك بكىٰ علي علىٰ النبي ﷺ.

فهذه الأحاديث كلُّها دالّة علىٰ جواز البكاء قبل الموت وبعده من غير كراهة، وما ذكره أصحاب الشّافعي ومَن قال بقولهم من الكراهة بعد الموت مستدلّين بما تقدّم من أحاديث النّهيّ، فكلُّها محمولةٌ علىٰ البكاء الذي معه ندبٌ ونياحة.

ويؤيّد ذلك ما يأتي ذكره: «**إنّ الميّت ليُعذّب ببكاء أهلِه عليه**»، وفي لفظه: «**يعذب بما نيح عليه**».

وأمّا من ادّعىٰ النّسخ في حديث حمزة فلا يصحّ؛ لأنّ معناه لا تبكين علىٰ هالك بعد اليوم من قتلىٰ أحد.

ويدلّ علىٰ ذلك أنّ نصوص الإباحة أكثرها مُتأخِّرة عن غزوة أُحد، منها حديث أبي هريرة؛ لأنّ إسلامَه وصحبته كانا في السّنّة السّابعة، ومنها البكاء علىٰ جعفر وأصحابه، وكان استشهادُهم في السّنة الثّامنة، وكذلك البكاء علىٰ زينب بنت رسول الله ﷺ، كان في الثّامنة – أيضًا –، والبكاء علىٰ قبر أمّه ﷺ كان عام الفتح.

وأمّا قولُهم: إنّما جاز قبل الموت حذَراً بخلاف ما بعد الموت.

جوابه: أنّ كان الباكي، قبل الموت، يبكي حزنًا، وحزنه بعد الموت أشدّ، لأنّه قبل الموت ربّما يرتجىٰ، وبعده فقد فقدت الرّجوىٰ، فبكىٰ لفراق لا عودة بعده في الدّنيا، وهذا معنىٰ قوله ﷺ: «**إنّ العينَ لتدمعُ وإنّ القلبَ ليحزنُ ولا نقول ما يسخط الرب**»، ومنها: قال البخاري: قال عمر: دعهن يبكين علىٰ أبي سلمان ما لم يكن نقع أو لَقْلَقَةٌ.

والنّقع: التّرابُ علىٰ الرّأس.

واللّقلقة: الصوت.

حدّثنا إسحاق بن منصور، عن أبي رجاء عبد الله بن واقد، عن محمّد بن مالك، عن البراء بن عازب، قال: كنّا مع النبي ﷺ في جنازة، فلمّا انتهينا إلىٰ القبر، فاستدرتُ، فاستقبلته، فإذا هو يبكي حتّىٰ بلّ الثّرىٰ، ثمّ قال: «**إخواني، لمثل هذا اليوم فأعدوا**» رواه الإمام أحمد.



﴿ فصل ﴾

فيما روي على النبي صلى الله عليه وسلم في البكاء على الميت

وقد ذكر بعض العلماء أنّ البكاء الذي روي عن النبي ﷺ أنّه فعله وأباحه، أو أمر به للاستحباب، هو البكاء الذي هو دمع العين ورقّة القلب ورحمته، والذي نهى النّبيّ ﷺ عنه، وهو البكاء - بالمد - الذي يستلزمُ الصّراخ والنّدب والعويل.

ويشهد لهذا قوله ﷺ: «**ما كان من العين والقلب فمن الله عَزَّوَجَلَّ، وما كان من اليد واللّسان فمن الشّيطان، ونهى عن رنّة الشّيطان**»، وهو رفع الصّوت عند المصيبة.

قلت: هذا وإن كان حسنًا، يُعكِّر عليه وما حكيناه عن الجوهريّ: إنّ البكاء يمد ويقصر، فهو لغتان، فلا فرق فيه بين المد والقصر، والله أعلم.





﴿ فصل ﴾

في التّحذير ممّا يتفوّه به المُصاب من ألفاظ التّظلُّم والشّكوىٰ

وليحذر العبدُ كلَّ الحذَرِ، أن يتكلّم في حال مصيبته وبكائه، بشيء يُحبط به أجره، ويُسخط به ربّه، ممّا يشبه التّظلّم، فإنّ الله تعالىٰ عدلٌ لا يجور وعالمٌ لا يضل ولا يجهل، وحكيم أفعاله كلّها حكم ومصالح، ما يفعل شيئًا إلا لحكمة، فإنّه سبحانه له ما أعطىٰ، وله ما أخذ، لا يُسأل عمّا يفعل، وهم يُسألون، وهو الفعّال لما يريد، والقادر علىٰ ما يشاء، له الخلق والأمر.

بل إنّما يتكلّم بكلام يُرضي به ربّه ويكثّر به أجرَه، ويرفع الله به قدره.

وقد روىٰ ابن أبي الدنيا بإسناده قال: حدثني يونس بن محمد المكي، قال: «زرع رجل من أهل الطّائف زرعًا، فلمّا بلغ، أصابته آفة فاحترق، فدخلنا عليه لنسليه عنه، فبكىٰ وقال: والله ما عليه أبكي، ولكن سمعت الله تعالىٰ يقول: ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾[آل عمران:١١٧]، فأخاف أن أكون من أهل هذه الصّفة، فذلك الذي أبكاني».

قال أبو العرب: «لمّا أمر عبد الله بن زياد بالبلجاء أن يمثّل بها، جاؤوا ومعهم الحديد والحبال، فقالت: إليكم أتكلّم بكلام يحفظه عنّي من سمعه قال: فحمدَتِ الله وأثنتْ عليه، ثم قالت: هذا آخر يومي من الدنيا، وهو غير مأسوف عليه، وأرجو أن يكون أوّل أيّامي من الآخرة، وهو اليوم المرغوب فيه، ثم قالت: والله، إنّ عِلمي بفَنائها هو الذي زهّدني في البقاء فيها، وسهّل عليّ بلواها، فما أحبّ تعجيل ما أخّر الله، ولا تأخير ما عجّل الله، والحمد لله علىٰ السّراء والضّراء، وعلىٰ العافية وعلىٰ البلاء، ثم قالت: كنت أؤمل في الله ما هو أكثر من هذا قال: ثم إنهم قطعوا يديها ورجليها، فجعل الدّم لا يرقأُ، فقالت: حياة كريمة، ومِيتة طيّبة، لأنّي نِلت ما أمّلت - يا نفس - من جزيل ثوابِ الله، فقد نِلت سروراً دائمًا

لا يضرّك معه كدرٌ.

وهي حين قطعُوا يديْها ورِجلَيْها، فلم تتكلّم، فقيل لها ذلك، فقالت: شَغَلَنِي هولُ المَطلَعِ عن ألَم حديدكم هذا، ثمّ أتوا بالنّار، لتُكوىٰ بها، فلمّا رأتها صَرخت، فقيل لها: لِقطع اليدين والرِّجلين لم تنطقي، فلمّا رأيت النّار صرخت؟ فقالت: والله ليس من ناركم صرخت، ولا علىٰ دنياكم أسفت، ولكنّني ذكرت بها النّار الكبرىٰ، فكان الذي رأيتم من ذلك.

قال: فأمر بها، فسملت عيناها، فقالت: اللهم قد طال في الدّنيا حزني، فأقرّ في الآخرة عيني، ثم قالت: لئن كنت علىٰ بصيرة من أمري إنّ هذا لقليل في جنب ما أطلب من ثواب الله.

قال: فما تكلمت بغيرها حتىٰ ماتت - رحمها الله تعالىٰ -.

وكانت البلجاء من شيعة علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وكان قد بلغ الحسنَ بنَ علي أنّ ابن زياد يتتبع شيعة عليٍّ فيقتلهم، فقال: «اللهمّ اقتله وأمته حتف أنفه».

والإسناد: قال أبو العرب: حدثنا عبد الله بن الوليد، عن جابر بن خداش بن عجلان، ثنا سالم بن عمير، عن سالم الهلالي، فذكره.

وليحذر العبد - أيضًا - أن يدعو علىٰ نفسه، فإنّ النّبيّ ﷺ قال - لمّا مات أبو سلمة -: «**لا تدعوا علىٰ أنفسكم إلّا بخير، فإنّ الملائكة يؤمنون علىٰ ما تقولون**».

وليعلم - أيضًا - أنّ البكاء يضرُّ الحيَّ والميّت، فإنَّ الحيّ يخاف علىٰ عينيه، كما قال الله تعالىٰ في قصّة يعقوب عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ﴾ [**يوسف**:٨٤]، والميّت لا يستريح به، فقد ذكر الحافظ أبو شجاع شيرويه الديلمي بإسناده، عن علي بن الحسين، قال بينا داود الطائي جالسًا مع أصحابه يومًا، إذ غفا وهو معهم، ثم انتبه، فقال: أتدرون ما رأيت في نومتي هذه؟ دخلت الجنّة، فرأيت فيها صبيانًا يلهون بالتّفاح، يناول بعضهم بعضًا، وصبيّ ناحية عنهم جالس حزين يُرىٰ الانكسار عليه بيّنًا، فقلت: ما بال ذلك الصّبي لا يلهو معكم

كما تلْهَون؟ قالوا: ذاك حديث عهد بالدّنيا، وأمّه تكثر البكاء عليه، فانكساره لكثرة بكاءِ أمِّه عليه، قال: فقلت: أين منزلهم؟ قالوا في قبيلة آل فلان، قال: فقلت من أبواه؟ قالوا: فلان وفلانة، قلت: فما اسمه؟ قالوا: فلان.

فقال داود لأصحابه: فانطلقوا، قال: فانطلقوا فأتوا القبيلة، فسألوا عن أبويه، فلقيهما أو لقي أحدهما، فقال لهما ما رأىٰ في منامه، فجعلت الأمّ علىٰ نفسها أن لا تبكي عليه أبداً».



﴿ الباب الثالث ﴾

في تحريم النّدب والنّياحة وشقّ الثّياب

النّدب: اسم للبكاء علىٰ الميت وتعداد محاسنه، قاله الجوهري، والاسم النّدبة بالضمّ، وقيل تعداد شمائل الميت، فيقال: وا كريماه وا جبلاه وا لهفاه.

والنَّوح: قال القاضي عياض: هو اجتماع النساء للبكاء علىٰ الميت متقابلات، وذكر في المغني: أنه تعداد محاسن الميت بلفظ النّداء، إلا أنه يكون بلفظ الواو، وربما زيد فيه الألف والهاء، مثل قولهم: وا رجلاه وا جبلاه وا انقطاع ظهراه، ونحوه.

وقال غيره: قال أهل اللّغة: النّياحة: اسم لاجتماع النّساء للبكاء علىٰ الميت متقابلات، كما ذكر القاضي عياض، والتناوح: التقابل، ثم استعمل في صفة بكائهن بصوت ورنة وندبة.

واعلم - رحمك الله - أنّ المطلوبَ في المصيبةِ السُّكون والصّبر، والرِّضا بقضاء الله تعالىٰ، والحمد والاسترجاع، والصدقة عن المصاب به والدّعاء له، وأمّا النّدب والنّياحة، وشقّ الجيوب، ولطم الخدود، وقول المنكر، كلّ هذا ينافي ما ذكر.

وقد نص الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ تحريم النّدب والنّياحة، قال في رواية حنبل: «النياحة معصية».

وقال أصحاب الشافعي وغيرهم: «النوح حرام».

وقال أبو عمر بن عبد البر: «أجمع العلماء علىٰ أن النياحة لا تجوز للرجال ولا للنساء».

وقال أبو الخطاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الهداية: «ويُكره الندب والنياحة، وخمش



الوجوه، وشق الجيوب، والتحفي». وهذا قول ضعيف مُصادم لما ورد من السنة.

وذكر الشيخ في المغني قال حربٌ عن أحمد كلاماً فيه احتمال إباحة النوح والندب، قال: «واختاره الخلّال وصاحبه؛ لأن واثلة بن الأسقع، وأبا وائل كانا يسمعان النوح ويبكيان»، ثم قال: «وظاهر الأخبار تدل علىٰ التحريم». انتهىٰ كلامه.

واستنادهم في ذلك لآثار مروية عن بعض الصحابة والسلف، لا ترد ما ورد في الصحيح والمسانيد.

فإنهم قالوا: «قد روىٰ حرب عن واثلة بن الأسقع وأبي وائل: إنما كانا يسمعان النوح ويبكيان».

قالوا: «وقد ورد في الصحيح من حديث أمِّ عطيّة، قالت: لمّا أنزلت هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾[**الممتحنة:١٢**] كان منه النّياحة، فنهانا عن النّياحة، فقبضتِ امرأةٌ منّا يدها فقالت: فلانة أسعدَتني فإنّما أُريد أن أجزيَها، قال: فما قال لها شيئاً فذهبت فانطلقت، ثم رجعتْ فبايعها».

وفي لفظ الصحيح: قالت أم عطية: يا رسول الله إلا آل فلان، فإنهم أسعدوني في الجاهلية، فلا بد لي أن أسعدهم فقال: «**إلا آل فلان**» .

والجواب عن ذلك: أنّ المرأة التي سكت عنها ذلك خاصّ بها لوجهين:

أحدهما: أنها حديثة عهد بالإسلام، فربما كان فيه تنفير لها عنه.

الثاني: أنه قال لغيرها لمّا سألته ذلك، قال: «**لا إسعاد في الإسلام**» .

فإطلاقه لها، وحَجْره علىٰ غيرها، يدل علىٰ الخصوص.

وعلىٰ الرواية الأولىٰ: أنّ امرأة قبضت يدها، ولم تبايع إلا بعد الإسعاد، فلا إشكال، وقد حكىٰ بعضُ المبايعات القصّة ولم تستثن أحداً، فما ورد في سنن أبي



داود من حديث أسيد بن أبي أسيد عن امرأة من المبايعات قالت: كان فيما أخذ علينا رسول الله  في المعروف الذي أخذ علينا أن لا نعصيَه فيه: أن لا نخمشَ وجهًا، ولا ندعو ويلاً ولا نشق جيبًا، ولا ننبش شعراً.

❁ ❁ ❁



﴿ فصل ﴾

فيما ورد من تحريم ذلك، وما ورد من الوعيد عليه

عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «ليس منّا من ضرب الخدود، وشقّ الجيوب، ودعا بدعوىٰ الجاهلية» رواه البخاري ومسلم.

وعن أبي بردة، عن أبي موسىٰ، قال: «وجع أبو موسىٰ وجعًا، فغشي عليه، ورأسه في حِجر امرأة من أهله، فأقبلت تصيح برنة، فلم يستطع أن يرد عليها شيئًا، فلمّا أفاق قال: إني بريء ممن بَرِئ منه محمد ﷺ، إن رسول الله ﷺ برئ من الصّالقة والحالقة والشّاقّة».

رواه البخاري ومسلم عن الحكم بن موسىٰ، إلا أنّ البخاري لم يذكر أنّه حدّثه به، بل قال: قال الحكم بن موسىٰ فهو عنده معلّق.

قوله: «الصّالقة»: يعني التي ترفع صوتها عند المصيبة، و«الحالقة»: التي تحلق شعرها، و«الشّاقّة»: التي تشقّ ثوبها.

وعن أم عطيّة، قالت: «أخذ علينا رسول الله ﷺ عند البيعة، أن لا ننوح، فما وفت منّا امرأة غير خمس نسوة، أم سليم، وأم العلاء، وابنة أبي سبرة امرأة معاذ، وامرأتان، أو ابنة أبي سبرة وامرأة معاذ وامرأة أخرىٰ». رواه البخاري، وهذا لفظه، ومسلم.

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أخذ النّبيّ ﷺ علىٰ النساء حين بايعهن، أن لا يَنُحْنَ، فقلن: يا رسول الله إنّ نساءً أسعدنَنا في الجاهليّة أفنُسعِدُهُنّ في الإسلام؟ فقال: «**لا إسعاد في الإسلام**» رواه الإمام أحمد.

وعن أبي مالك الإشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنّ النّبيّ ﷺ قال: «**أربع في أمّتي من أمر الجاهليّة لا يتركونهنّ: الفخرُ في الأحسابِ، والطّعن في الأنساب، والاستسقاء**

بالنّجوم، والنِّياحة».

وقال: «النّائحة إذا لم تتب قبل موتها تُقام يوم القيامة وعليها سِربَالٌ من قطران ودِرع من جرب» انفرد بإخراجه مسلم.

وفي حديث جابر في قصة إبراهيم ابنِ النبيِّ ﷺ وقد تقدم، وفيه: ألم تنه عن البكاء؟ قال: «**لا ولكن نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين: صوت عند مصيبة خمش وجه وشق جيوب ورنة شيطان**» ..الحديث رواه الترمذي.

وكذلك تقدّمت قصّة قتل زيد بن حارثة وأصحابه، من حديث عائشة، قالت: لما جاء رسول الله ﷺ قتل زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة، جلس رسول الله ﷺ يُعرف في وجهه الحُزن، قالت عائشة: وأنا أنظر من صائر الباب [شق الباب] فأتىٰ رجلٌ فقال: يا رسول الله، إنّ نساء جعفر، وذكر بكاءهن، فأمره أن يذهب فينهاهن، فذهب، فأتاه فذكر أنهن لم يطعنه، فأمره الثانية أن ينهاهن، فذهب، ثم أتاه، فقال: والله لقد غلبننا يا رسول الله، قالت: فزعمت أنّ رسول الله ﷺ قال: «**اذهب فاحْثُ في أفواههنّ التراب**»، قالت عائشة: فقلت: أرغم أنفك، والله ما تفعل ما أمرك رسول الله ﷺ، وما تركت رسول الله ﷺ من العناء» رواه البخاري ومسلم، وهذا لفظه.

وعن عبيد بن عمير، عن أم سلمة، قالت: لما مات أبو سلمة قلت: غريب وفي أرض غريبة، لأبكينّه بكاءً يُتحدّث عنه، فكنت قد تهيّأتُ للبكاء عليه إذا أقبلت امرأة من الصعيد تريد أن تسعدني، فاستقبلها رسول الله ﷺ وقال: «**أتريدين أن يدخل الشيطان بيتًا أخرجه الله منه مرتين؟**»، فكففت عن البكاء فلم أبك. انفرد بإخراجه مسلم.

وعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «**النّياحة علىٰ الميّت من أمر الجاهليّة، فإنّ النّائحة إذا لم تتب قبل أن تموت فإنّها تُبعث يوم القيامة عليها سربال من قطران، ثم يعلىٰ عليها بدرع من لهب النار**» رواه ابن ماجة من رواية عمر بن



راشد اليمامي، وقد ضعّفه غير واحد، وقد روي في صحيح مسلم بأتمّ من هذا وأبين.

وعن أبي أُمامة: «**أنّ رسول الله ﷺ لعن الخامشة وجهها، والشّاقّة ثوبها، والدّاعية بالويل والثّبور**». رواه ابن ماجة.

والثبور: الهلاك، ومنه قوله تعالى: ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾﴾[**الفرقان**]، أي صاحوا: وا هلاكاه.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: لعن رسولُ الله ﷺ النائحة والمستمعة» رواه أبو داود من رواية عطية العوفي وقد تكلّم فيه.



﴿ فصل ﴾

فيما ورد من عذاب الميّت بالنّياحة

عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النّبيّ ﷺ، قال: «**الميّت يعذَّب في قبره بما نِيح عليه**» ، وفي رواية: «**يعذب بما نيح عليه**» ولم يذكر في قبره رواه البخاري ومسلم.

وعن المغيرة بن شعبة، قال: بعث النبي ﷺ يقول: «**إنّه من ينُح عليه يُعذّب بما نيح عليه**» رواه البخاري ومسلم.

وعن أُسيد بن أبي أسيد عن موسىٰ بن أبي موسىٰ عن أبيه أنّ النبي ﷺ قال: «**الميّت يُعذّب ببكاء الحيّ، إذا قالت النّائحة: وا عضُداه! وا ناصراه! وا كاسِباه! جبذ الميّت، وقيل له: أنت عضدها؟ أنت ناصرها؟ أنت كاسبها؟**»، فقلت: سبحان الله! يقول الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[**الأنعام:١٦٤**]، فقال: أحدّثك عن أبي موسىٰ عن رسول الله ﷺ، وتقول هذا، فأيّنا كذب؟ فو الله ما كذبت علىٰ أبي موسىٰ، ولا كذب أبو موسىٰ علىٰ رسول الله ﷺ». رواه الإمام أحمد.

وعن المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ: «**إنّ كذبًا عليَّ ليس ككذبٍ علىٰ أحد، مَن كذَب عليَّ مُتعمِّداً فليتبوَّأ مقعدَه من النار**»، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من ينح عليه يعذب بما نيح عليه**». رواه البخاري، وهذا لفظه، ومسلم.

وعن النّعمان بن بشير، قال: أُغميَ علىٰ عبد الله بن رواحة، فجعلتْ أخته عَمرة تبكي وتقول: وا جبلاه، وا كذا وا كذا، تُعدِّد عليه، فقال حين أفاق: ما قلت شيئًا إلّا وقد قيل لي: أنت كذلك؟! فلما مات لم تبك عليه ﷺ». رواه البخاري.

وروىٰ الترمزي في جامعه عن أبي موسىٰ، أنّ رسول الله ﷺ قال: «**ما من ميّت يموت، فيقوم باكيهم فيقول وا جبلاه، وا سيداه، أو نحو ذلك، إلّا وكل به ملكان يلهزانه: أهكذا كنت؟**» قال الترمذي: حديث حسن غريب.

قوله: «يلهزانه» ، اللّهز: الدّفع بجميع اليد في الصّدر.





تعليق الشيخ حسن آيت علجت حفظه الله

﴿الباب الرابع عشر﴾

في فرح العبد وتسليته بكونه من أمة محمد ﷺ

أن لله علينا من النعم ما لا يحصيها إلا الله تعالىٰ الذي هدانا للإسلام، وجعلنا من أمة خير الأنام، فإن كل نبي من الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ فضل بشيء، فنبينا فضل به وزاد عليه، وهو أول من تنشق عنده الأرض، وأول شافع، وأول مشفع، وأول من يقرع باب الجنة.

وقد ثبت في صحيح مسلم عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنا أول الناس يشفع في الجنة، وأنا أكثر الأنبياء تبعًا**».

وعن أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**يأتي معي من أمتي يوم القيامة مثل السيل والليل، فيحطم الناس، فتقول الملائكة: لما جاء مع محمد أكثر مما جاء مع سائر الأنبياء**» رواه البزار.

وعن بريدة بن الحصيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أهل الجنة عشرون ومائة صف، ثمانون منها من هذه الأمة، وأربعون من سائر الأمم**». رواه الترمذي.

وعن الطفيل بن أبي، عن أبيه، عن النبي ﷺ قال: «**إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين، وخطيبهم، وصاحب شفاعتهم غير فخر**». ورواه الترمذي.

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفًا بغير حساب، مع كل واحد من السبعين ألفًا سبعين ألفًا**». رواه مسلم.

وعن الحذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: غاب عنا رسول الله ﷺ يومًا، فلم يخرج، حتىٰ ظننا أنه لن يخرج، فلما خرج، سجد سجدة ظننا أن نفسه قد قبضت، فلما



رفع قال: »**إن ربي عز وجل، استشارني في أمتي، ماذا أفعل بهم؟ قلت: ما شئت يا رب، هم خلقك وعبادك، فاستشارني الثانية، فقلت له: كذلك، ثم استشار في الثالثة، فقلت له: كذلك، فقال: إني لم أخزك في أمتك، وبشرني أن أول من يدخل الجنة زمراً من أمتي سبعون ألفًا، مع كل ألف في سبعون ألفًا، ليس عليهم حساب، ثم أرسل إلي ربي عز وجل: ادع تجب، وسل تعطه، فقلت لرسوله: أو معطني ربي عز وجل سؤلي؟ قال: ما أرسل إليك إلا ليعطيك، وقد أعطاني ربي، غير فخر، أنه غفر لي من ذنبي ما تقدم وتأخر، وشرح صدري، وأعطاني أن لا تجوع أمتي، ولا تغلب، وأنه أعطاني الكوثر، ونهر في الجنة، يسيل من حوضي، وأنه أعطاني العزة والنصرة والرعب، وأنه أعطاني بأني أول الأنبياء دخولاً إلىٰ الجنة، وطيب لي ولأمتي الغنيمة، وأحل لنا كثيراً مما شدد علىٰ من قبلنا، ولم يجعل علينا في الدين من حرج، فلم أجد شكراً إلا هذه السجدة**» رواه أبو بكر الشافعي.

وقوله: «**ولا تجوع أمتي**» أي لا تجوع كلها، فإن جاعت في أرض، شبعت في أخرىٰ وكذلك: «**لا تغلب**» أي كلها، فإن غلبت في موضع، غلبت في موضع آخر، والله أعلم.



﴿الباب السادس عشر﴾

في وجوب الصبر على المصيبة

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠)﴾[آل عمران]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣)﴾[البقرة]، وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (٣١)﴾[محمد]، والآيات التي فيها الأمر بالصبر كثيرة جداً معروفة.

قال الإمام أحمد: «ذكر الله سبحانه وتعالى الصبر في القرآن في تسعين موضعًا».

اعلم أن حقيقة الصبر، عند أرباب التصوف: خلق فاضل من أخلاق النفس، يمنع به من فعل مالا يحسن ولا يجمل، وهو قوة من قوى النفس التي بها صلاح شأنها، وقوام أمرها.

قال سعيد بن جبير: «الصبر اعتراف العبد لله بما أصابه منه، واحتسابه عند الله، ورجاء ثوابه، وقد يجزع الرجل، وهو متجلد، لا يرى منه إلا الصبر».

وقد تقدم: حديث أبي زيد، أسامة بن زيد بن حارثة، مولى رسول الله ﷺ، وإرسال بنت رسول الله ﷺ إلى رسول الله ﷺ: إن ابني قد احتضر فاشهد، فأرسل يقرأ السلام، ويقول: «**إن لله ما أخذ وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فلتصبر وتحتسب**» الحديث، أمرها بالصبر.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: مر النبي ﷺ بامرأة تبكي عند قبر، فقال: «**اتقي الله واصبري، فقالت: إليك عني، فإنك لم تصب بمصيبتي - ولم تعرفه - فقيل لها: إنه النبي ﷺ، فأتت باب النبي ﷺ، فلم تجد عنده بوابين، فقالت: لم**

أعرفك، فقال: إنما الصبر عند الصدمة الأولى» رواه البخاري ومسلم.

و في رواية: تبكي على صبي لها، فقال: «**إنما الصبر عند أول صدمة**»، وهذا يشبه قوله -عليه الصلاة والسلام-: «**ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب**»، فإن مفاجئة المصيبة بغته، لها روعة تزعزع القلب، وتزعجه بصدمها، فإن صبر للصدمة الأولى انكسرت حدتها، وضعفت قوتها، فهان عليه استدامه الصبر، كذلك الغضب.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ، قال: «**يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة**» رواه البخاري.

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها سألت رسول الله ﷺ عن الطاعون، فأخبرها: «**أنه كان عذابًا يبعثه الله تعالى على من يشاء، فجعله الله رحمة للمؤمنين، فليس من عبد، يقع الطاعون، فيمكث في بلده صابراً محتسبًا، يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له إلا كان له مثل أجر الشهيد**» رواه البخاري، ورواه الإمام أحمد من حديث عائشة أيضًا بلفظه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمة: «الصبر على المصائب واجب باتفاق أئمة الدين، وإنما اختلفوا في وجوب الرضا». انتهى كلامه.

فالصبر واجب من حيث الجملة، ولكنه يتأكد بحسب الأوقات فهو في زمن الطاعون آكد منه في غيره، فإنه إذا صبر على الإقامة في البلد الذي وقع فيه الطاعون، وصبر عند موت أولاده أو أقاربه أو أصحابه، وصبر أيضًا عند مصيبته بنفسه، وعلم يقينًا أن الآجال لا تقديم فيها ولا تأخير، وأن الله تعالى كتب الآجال في بطون الأمهات، كما ثبت في الصحاح: «كتب رزقه وأجله، وشقي هو أم سعيد»، فلا زيادة ولا نقص إلا في صلة الأرحام، ففيها خلاف معروف بين أهل العلم، فإذا صبر واحتسب لم يكن له ثواب دون الجنة، وإذا جزع ولم يصبر أثم وأتعب نفسه ولم يرد من قضاء الله شيئًا.

ولقد ضمن الوافي الصادق الناطق في محكم كتابه حيث قال عن الصابرين:



أنهم يوفون ﴿أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾[الزمر].

وأخبر أنه معهم بهدايته ونصرة العزيز وفتحه المبين، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾[البقرة]، فذهب الصابرون بهذه المعية التي هي خير الدنيا والآخرة، وشارك بعض الأنبياء في قوله: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾[طه] وأخبر تعالى أن الصبر خير لأهله خبراً مؤكداً.

فقال تعالى: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾[النحل].

وأخبر أن الصبر مع التقوى لا يضر معه كيد الأعداء أبداً، فقال: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾[آل عمران].

تعليق الشيخ نجيب جلواح حفظه الله

﴿ الباب السابع عشر ﴾

فيما ورد بالصبر على المصيبة

قال الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾[البقرة].

وقال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورى].

وقال تعالى: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ﴿٣١﴾﴾ [محمد].

وهذا باب متّسع جداً في الآيات والأحاديث، وإنما نذكر منه، ما يوقظ الساهي، وينبه الغافل.

وقد تقدم حديث أم سلمة من غير وجه، من رواية الإمام أحمد، ومسلم وغيرهما.

وعن أبي مالك الحارث بن عاصم الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن ما بين السموات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك»** الحديث رواه مسلم.

ورواه أبو داود، من طريق أخرى، بلفظ غريب: أن أم سلمة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«إذا أصابت أحدكم مصيبة، فليقل: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم عندك احتسبت مصيبتي، فأجرني بها، وأبدلني خيراً منها، فلما احتضر أبو سلمة قال: اللهم**



أخلفني في أهلي خيراً مني»، فلما قبض، قالت أم سلمة: «إنا لله وإنا إليه راجعون، عند الله احتسبت مصيبتي فأجرني فيها» .

فانظر رحمك الله إلىٰ ما آلت إليه، حين احتسبت وصبرت، ورضيت وركنت، واتبعت السنة، وقد تقدم نحو ذلك.

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن ناسًا من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، حتىٰ نفذ ما عنده، فقال لهم -حين أنفق كل شيء بيده-: «**ما يكون عندي من خير فلن أدخره عنكم، ومن يستعف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبر يصبره الله، وما أعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر**» رواه البخاري ومسلم.

وعن صهيب بن سنان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**عجبًا لأمر المؤمن! إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء، صبر فكان خيراً له**»، رواه مسلم.

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله عَزَّ وَجَلَّ قال: إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه، فصبر، عوضته منهما الجنة**» - يريد عينيه - رواه البخاري.

وعن عطاء بن أبي رباح، قال: قال لي ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟» فقلت: بلىٰ، قال: «هذه المرأة السوداء، أتت النبي ﷺ، فقالت: إني أصرع، وإني أتكشف، فادع الله تعالىٰ لي فقال: «**إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله أن يعافيك**»، فقالت: أصبر، ثم قالت: إني أتكشف فادع الله أن لا أتكشف، فدعا لها. رواه البخاري ومسلم.

وعن أبي سعيد وأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ، قال: «**ما يصيب المسلم من نصب، ولا وصب، ولا هم، ولا حزن، ولا أذىٰ، ولا غم، حتىٰ الشوكة يشاكها، إلا كفر الله بها من خطاياه**». رواه البخاري ومسلم.

«الهم»: علىٰ المستقبل، و«الحزن»: علىٰ الماضي، و«النصب»: التعب،

والوصب: المرض.

وروي في حديث أبي موسىٰ الأشعري، أن النبي ﷺ، قال: «**لا يصيب العبد نكبة فما فوقها أو دونها إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر قال: وقرأ** ﴿وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ [المائدة:١٥]».

وروي من حديث عمرو بن العاص، أن النبي ﷺ، قال: «**المسلم الذي يخالط الناس ويصبر علىٰ أذاهم، خير من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر علىٰ أذاهم**».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من يرد الله به خيراً يصب منه**» رواه البخاري، قوله: «يصب» بفتح الصاد وكسرها.

وفي الصحيح: أن رسول الله ﷺ قسم مالاً، فقال بعض الناس: «هذه قسمة ما أريد بها وجه الله»، فأخبر بذلك رسول الله ﷺ، فقال: «**رحم الله أخي موسىٰ لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر**».

وقال عبد الرزاق: حدثنا الثوري، عن سفيان العصفري، عن سعيد بن جبير، أنه قال: في قوله تعالىٰ: ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣﴾ [البقرة].

قال: لم يعط أحد غير هذه الأمة الصبر، ألا تسمعون إلىٰ قول يعقوب عليه السلام: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف:٨٤].

وروىٰ سعيد بن منصور في سننه: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا عيينة بن عبد الرحمن، عن أبيه أن ابن عباس رضي الله عنهما نعي إليه أخوه قثم، وهو في سفر، فاسترجع، ثم تنحىٰ عن الطريق فأناخ، ثم صلىٰ ركعتين، فأطال فيهما الجلوس، ثم قام يمشي إلىٰ راحلته وهو يقول: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ٤٥﴾ [البقرة].



وقال هشيم: حدثنا خالد بن صفوان، قال: حدثني زيد بن علي، أن ابن عباس كان في مسير له، فنعي إليه ابن له، فنزل فصلى ركعتين، ثم استرجع، وقال: فعلنا كما أمرنا الله: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾[البقرة:٤٥].

وقال أبو الفرج بن الجوزي: روي عن أم كلثوم -وكانت من المهاجرات- أنه لما غشي على زوجها عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خرجت إلى المسجد تستعين بما أمرت به من الصبر والصلاة.

وحكى سعيد بن منصور، عن الحجاج، عن ابن جريج ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾[البقرة:٤٥]، قال: «إنهما معونتان على رحمة الله».

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: دخلت على النبي ﷺ وهو يوعك، فقلت يا رسول الله، إنك توعك وعكًا شديداً، قال: «**أجل إني أوعك كما يوعك الرجلان منكم**»، **قلت: ذلك أن لك أجرين؟ قال:** «**أجل، ذلك كذلك، ما من مسلم يصيبه أذى، شوكة فما فوقه، إلا كفر الله بها سيئاته، كما تحط الشجرة ورقها**» رواه البخاري ومسلم.

«والوعك»: مغث الحمى، وقيل: الحمى.

وعن خباب بن الأرت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ، وهو متوسد بردة له، في ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: «**قد كان من قبلكم، يؤخذ الرجل، فيحفر له في الأرض، فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار، فيوضع على رأسه، فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، ما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن الله هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله، والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون**»، رواه البخاري.

وفي الترمذي أن رسول الله ﷺ، قال: «**إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمنرضي فله الرضى، ومن سخط فله السخط**» قال الترمذي: حديث حسن.



وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان ابن لأبي طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يشتكي، فخرج أبو طلحة فقبض الصبي، فلما رجع أبو طلحة قال: «ما فعل ابني؟» قالت أم سليم - وهي أم الصبي -: هو أسكن ما كان، فقدمت له العشاء فتعشىٰ، ثم أصاب منها، فلما فرغ منها قالت: «واروا الصبي»، فلما أصبح أبو طلحة أتىٰ رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: «**أعرستم الليلة؟**» قال: نعم! قال: «**اللهم بارك لهما**»، فولدت غلامًا، فقال لي أبو طلحة: احمله حتىٰ تأتي به النبي ﷺ وبعث معه تمرات، فقال: «**أمعه شيء؟**» قال: نعم، تمرات، فأخذها النبي ﷺ، فمضغها ثم أخذها من فيه، فجعلها في في الصبي، وحنكه، وسماه عبد الله»، رواه البخاري ومسلم.

وفي رواية البخاري: قال ابن عيينة: فقال رجل من الأنصار: فرأيت تسعة أولاد كلهم قد قرأ القرآن - يعني من أولاد عبد الله -.

وفي رواية لمسلم مات ابن لأبي طلحة من أم سليم، فقالت لأهلها: «لا تحدثوا أبا طلحة بابنه حتىٰ أكون أنا أحدثه، فجاء فقربت إليه عشاء، فأكل وشرب، ثم تصنعت له أحسن ما كانت تصنع قبل ذلك، فوقع بها، فلما رأت أنه قد شبع وأصاب منها، قالت: «يا أبا طلحة، أرأيت لو أن قومًا أعاروا عاريتهم أهل بيت، فطلبوا عاريتهم، ألهم أن يمنعوهم؟» قال: «لا» فقالت: «احتسب ابنك»، فغضب ثم قال: «تركتيني حتىٰ إذا تلطخت ثم أخبرتيني؟!» فانطلق، حتىٰ أتىٰ رسول الله ﷺ، فأخبره بما كان، فقال رسول الله ﷺ: «**بارك الله في ليلتكما**» قال: فحملت، وذكر تمام الحديث وقد تقدم.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مايزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة، في نفسه وولده وماله، حتىٰ يلقىٰ الله تعالىٰ، وما عليه خطيئة**» رواه الترمذي

وقال: حديث حسن صحيح.

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**تنصب الموازين يوم القيامة، فيؤتىٰ بأهل الصلاة، فيوفون أجورهم بالموازين، ويؤتىٰ بأهل الصيام،**



فيوفون أجورهم بالموازين، ويؤتى بأهل الصدقة، فيوفون أجورهم بالموازين، ويؤتى بأهل الحج، فيوفون أجورهم بالموازين، ويؤتى بأهل البلاء، فلا ينصب لهم ميزان، ولا ينشر لهم ديوان، ويصب عليهم الأجر صبًا بغير حساب، ثم قرأ ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾[الزمر]، **حتى يتمنى أهل العافية في الدنيا، أن أجسادهم تقرض بالمقاريض، مما يذهب به أهل البلاء من الفضل»** رواه ابن منجويه في تفسيره.

وروى مالك بن أنس في الموطأ من حديث عطاء بن يسار، أن النبي ﷺ، قال: «**إذا مرض العبد، بعث الله إليه ملكين، فقال: انظرا ماذا يقول لعواده؟ فإن هو، إذا جاؤوه، حمد الله، وأثنى عليه، رفعا ذلك إلى الله - والله أعلم - فيقول: لعبدي علي إن توفيته، أن أدخله الجنة، وإن أنا شفيته، أن أبدله لحمًا خيراً من لحمه، ودمًا خيراً من دمه، وأن أكفر عنه سيئاته**».

❁ ❁ ❁

﴿ فصل ﴾

في كلام السلف في الصبر

قال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الصبر ثلاثة: صبر على المصيبة، وصبر على الطاعة، وصبر عن المعصية، فمن صبر على المصيبة، حتى يردها بحسن عزائها، كتب له ثلثمائة درجة، ومن صبر على الطاعة، كتب له ستمائة درجة، ومن صبر عن المعصية، كتب له تسعمائة درجة».

وقال ميمون بن مهران: «الصبر صبران: فالصبر على المصيبة حسن، وأفضل منه الصبر عن المعصية».

وقال الجنيد – وقد سئل عن الصبر – فقال: «هو تجرع المرارة من غير تعبس».

وقال الفضيل بن عياض: «في قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٤﴾ [الرعد] ثم قال: «صبروا على ما أمروا به، وصبروا عما نهوا عنه»، انتهى كلامه، فكأنه رَحِمَهُ اللَّهُ جعل الصبر عن المعصية داخلاً في قسم المأمور به.

قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، عن مالك بن مغول، عن أبي السفر، قال: «مرض أبو بكر فعادوه، فقالوا: ألا ندعو لك الطبيب؟ فقال: قد رآني الطبيب، قالوا: فأي شيء قال لك؟ قال: إني فعال لما أريد».

قال أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن مجاهد، قال: قال عمر بن الخطاب: «وجدنا خير عيشنا بالصبر»، وفي رواية: «أفضل عيش أدركناه بالصبر، ولو أن الصبر كان من الرجال كان كريمًا».

وقال علي بن أبي طالب: «ألا إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من



الجسد، فإذا قطع الرأس بار الجسد، ثم رفع صوته فقال: ألا إنه لا إيمان لمن لا صبر له».

وقال الحسن: «الصبر كنز من كنوز الخير، لا يعطيه الله إلا لعبد كريم عنده».

وقال عمر بن عبد العزيز: «ما أنعم الله علىٰ عبد نعمة، فانتزعها منه، فعاضها مكانها الصبر، إلا كان ما عوضه خيراً مما انتزعه منه».

وقال بعض العارفين في رقعة، يخرجها كل وقت، فينظر فيها، وفيها مكتوب ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾﴾ [الطور].

وقال مجاهد في قوله تعالىٰ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾: «في غير جزع».

وقال عمروبن قيس ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ قال: «الرضا بالمصيبة والتسليم».

وقال حسان: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾: «لا شكوىٰ فيه».

وقال همام عن قتادة في قول الله تعالىٰ: ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾[يوسف]، قال: «كظيم علىٰ الحزن، فلم يقل إلا خيراً».

وقال الحسن: «الكظيم: الصبور».

وقال الضحاك: «كظيم الحزن».

وقال عبد الله بن المبارك: أخبرنا عبد الله بن لهيعة، عن عطاء ابن دينار، أن سعيد بن جبير، قال: «الصبر اعتراف العبد لله بما أصاب منه واحتسابه عند الله».

قال يونس بن زيد: «سألت ربيعة بن أبي عبد الرحمن: ما منتهىٰ الصبر؟ قال: «أن يكون يوم تصيبه المصيبة مثله قبل أن تصيبه».

وقال قيس بن الحجاج في قوله تعالىٰ: ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾﴾[المعارج]، قال: «أن يكون صاحب المصيبة في القوم لا يعرف من هو».

وذكر أبو الفرج بن الجوزي في عيون الحكايات: قال الأصمعي: «خرجت

أنا وصديق لي إلىٰ البادية، فضللنا الطريق، فإذا نحن بخيمة عن يمين الطريق، فقصدناها، فسلمنا، فإذا امرأة ترد علينا السلام، قالت: ما أنتم؟ قلنا: قوم ضالون عن الطريق، أتيناكم فأنسنا بكم، فقالت: يا هؤلاء ولو وجوهكم عني حتىٰ أقضي من حقكم ما أنتم له أهل، ففعلنا، فألقت لنا مسحًا، فقالت: اجلسوا عليه إلىٰ أن يأتي ابني، ثم جعلت ترفع طرف الخيمة وتردها، إلىٰ أن رفعتها، فقالت: أسأل الله بركة المقبل، أما البعير فبعير ابني، وأما الراكب فليس بابني، فوقف الراكب عليها، فقال: يا أم عقيل، أعظم الله أجرك في عقيل، قالت: ويحك! مات ابني؟ قال: نعم، قالت: وما سبب موته؟ قال: ازدحمت عليه الإبل، فرمت به في البئر، فقالت: انزل فاقض ذمام القوم، ودفعت إليه كبشًا، فذبحه وأصلحه، وقرب إلينا الطعام، فجعلنا نأكل ونتعجب من صبرها، فلما فرغنا، خرجت إلينا وقد تكورت، فقالت: يا هؤلاء، هل فيكم من أحد يحسن من كتاب الله شيئًا؟ قلت: نعم، قالت: اقرأ من كتاب الله آيات أتعزىٰ بها، قلت: يقول الله ﷻ في كتابه: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾[البقرة]، قالت: آلله، إنها لفي كتاب الله هكذا؟ قلت: آلله، إنها لفي كتاب الله هكذا! قالت: السلام عليكم، ثم صفت قدميها، وصلت ركعات، ثم قالت: «إنا لله وإنا إليه راجعون، عند الله أحتسب عقيلاً -تقول ذلك ثلاثًا- اللهم إني فعلت ما أمرتني به، فأنجز لي ما وعدتني».





﴿ الباب الثامن عشر ﴾

في أن الشخص لا يستغني عن الصبر لا في المصيبة ولا في غيرها

اعلم – رحمك الله – أن الشخص البالغ العاقل المسلم، ما دام في دار التكليف، والأقلام جارية عليه، لا يستغني عن الصبر في حالة من الأحوال، فإنه بين أمر يجب عليه امتثاله، والصبر لا بد منه قولاً وفعلاً، وبين نهي يجب عليه اجتنابه وتركه، وبين قضاء وقدر يجب عليه الصبر فيهما، وبين نعمة يجب عليه شكر المنعم عليها والصبر عليه، وإذا كانت هذه الأحوال لا تفارقه، فالصبر لا زم له إلىٰ الممات.

فإن قيل: النعم يجب الصبر عليه؟

قيل: نعم، لأنها من الابتلاء، كما قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾﴾[الفجر]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾[محمد]، وفي الآية الأخرىٰ: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾ [الفجر]، أي: ليس الأمر كذلك، وإنما الله تعالىٰ يبتلي عباده بالغنىٰ والفقر، فينظر من هو المجاهد الشاكر الصابر علىٰ ما ابتلاه به، كما يبتلي عباده بالمصائب والأسقام تطهيراً لهم من الذنوب والآثام.

﴿ فصل ﴾

في الحالات التي يحتاج فيها العبد إلىٰ الصبر

ويحتاج العبد إلىٰ الصبر في ثلاثة أحوال:

أحدهما: قبل الشروع في العبادات، بتصحيح النية والإخلاص، وعقد العزم علىٰ توفية المأمور به وتجنب دواعي الرياء والسمعة.

والحالة الثانية: الصبر حال العمل، فيلازم الصبر، عند دواعي التقصير فيه والتفريط، ويلازم علىٰ استصحاب ذكر النية وحضور القلب بين يدي المعبود، وهو محتاج إلىٰ الصبر توفية أركانها وشروطها وواجباتها وسننها.

والحالة الثالثة: الصبر بعد الفراغ من العمل، فيحذر من الإتيان بما يبطله، كما قال تعالىٰ: ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ﴾[البقرة:٢٦٤]، فالصبر علىٰ محافظتها بعد الفراغ أنفع ما للعبد.

هذا معنىٰ ما ذكره الشيخ الإسلام ابن تيمية.

وقال العلامة ابن اليقيم: «وكل ما يلقىٰ العبد في هذه الدار لا يخلو من نوعين:

أحدهما: موافق هواه ومراده.

والثاني: يخالفه، وهو محتاج إلىٰ الصبر في كل منهما.

أما النوع الموافق لغرضه فكالصحة والسلامة والجاه والمال وأنواع الملاذ المباحة، وهو أحوج شيء إلىٰ الصبر فيها من وجوه:

أحدهما: أن لا يركن إليها، ولا يغتر بها، ولا يحمله عليه البطر والأشر والفرح المذموم الذي لا يحب الله أهله.

الثاني: أن لا ينهمك في نيلها، ولا يبالغ في استقصائها، فإنها تنقلب إلىٰ أضدادها، فمن يبالغ في الأكل والشرب والجماع، انقلب ذلك ضده، وحرم الأكل والشرب



والجماع.

الثالث: أن يصبر على أداء حق الله فيها، ولا يضيعه، فيسلبها.

الرابع: أن يصبر عن صرفها في الحرام، فلا يمكن نفسه من كل ما تريده منها، فإنها توقعه في الحرام، فإذا احترز أوقعته في المكروه، ولا يصبر على السراء إلا الصديقون.

قال بعض السلف: «البلاء يصبر عليه المؤمن والكافر، ولا يصبر على العافية إلا صديق».

وأما النوع الثاني: فأما الطاعة، فالعبد يحتاج إلى الصبر عليها، لأن النفس بطبعها تنفر عن كثير من العبادات إلا من وفقه الله، وتبين ذلك بالصلاة، طبع النفس فيها الكسل وإيثار الراحة، والزكاة فطبع النفس فيها الشح والبخل، وأما الصوم فطبع النفس بمحبة الفطر وعدم الجوع، وعلى هذا فقس، فهو محتاج إلى الصبر في جميع ذلك، والله أعلم».

ومن هذا الباب قول عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ابتلينا بالضراء فصبرنا، وابتلينا بالسراء فلم نصبر».



﴿ فصل ﴾

في مشقة الصبر على السراء أيضًا

وإنما كان الصبر على السراء شديداً مشقًا على النفس، لأنه مقرون بالقدرة على ما تشتهيه النفس وتميل إليه، لأن الجائع، عند عدم الطعام، أقدر منه على الصبر عند حضوره، وكذلك الشبق، عند غير المرأة، أصبر منه عند حضورها، وكذلك العطشان الشديد، العطش عند عدم الماء، أصبر منه عند وجوده.





﴿ فصل ﴾

في التحذير من فتنة المال والأزواج والأولاد

وقد حذر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، عباده المؤمنين، في كتابه العزيز، من فتنة المال، ومن فتنة الأزواج، ومن فتنة الأولاد، فقال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[المنافقون:٩].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[التغابن:١٥]، وقال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾[التغابن:١٤]، وليس المراد من هذه العداوة، ما يفهمه كثير من الناس، أنها عداوة البغضاء والمجادلة، بل عداوة المحبة الصادة للآباء، عن الهجرة والجهاد وتعليم العلم، وغير ذلك من أعمال البر، هذا معنىٰ ما ذكره العلامة ابن القيم.

فالمقصود: أنه من صبر في السراء عن المعصية، فقد أمن فتنة المال، فإنه قادر علىٰ فعل المعصية وبذل المال، فلهذا كان له الثواب الجزيل، والفضل العظيم، وكذلك من صبر علىٰ تربية الأولاد، وأذىٰ بعض الزوجات، كان له الدرجات العاليات، فإنه ليس كل زوجة وولد منهم أذىٰ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾[التغابن:١٤]، فإن: «من» هنا للتبعيض باتفاق الناس، والمعنىٰ: إن من الأزواج والأولاد عدواً، ليس المراد أن كل زوج وولد عدو، فإن هذا ليس هو مدلول اللفظ، وهو باطل في نفسه، فإنه سبحانه وتعالىٰ قد قال عن عباد الرحمن: إنهم يقولون: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾[الفرقان:٧٤] ، فسألوا الله أن يهب لهم من أزواجهم وأولادهم قرة أعين، فلو كان كل زوج وولد عدواً، لم يكن فيهم قرة أعين، فإن

العدو لا يكون قرة عين، بل سخنة عين.

وأيضًا فإنه من المعلوم أن إسماعيل وإسحاق ابني إبراهيم، ويحيىٰ بن زكريا وأمثالهم ليسوا أعداء.

وقول من قال: إنها زائدة؛ غلط لوجوه:

أحدهما: أن مذهب سيبويه وجمهور أئمة النحاة: أنها لا تزاد في الإثبات، وإنما تزاد في النفي تحقيقًا لعموم النفي، لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا﴾، ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾، ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ ونحو ذلك، فإنه لولا: «من» لكان الكلام ظاهراً في العموم، فإنه يجوز أن يقول: «ما رأيت رجلاً، بل رأيت رجلين» فإذا أدخلت من، فقلت: «ما رأيت من رجل»، كان نعتًا في العموم، فلا يجوز أن يقال: «ما رأيت من رجل بل رجلين»، مع أن النكرة في سياق النفي العموم مطلقًا، لكن قد يكون نصًا.

وقد يكون ظاهراً، فإذا كانت ظاهراً، احتملت نفي الواحد من الجنس، بخلاف النص، وهذا الموضع إثبات لا نفي، فلا تزاد فيه.

الثاني: أن من جوز زيادتها في الإثبات - كالأخفش - لا يجوزه إلا إذا كان في الكلام ما يدل عليه، وإلا فلو قال قائل: «إن من هؤلاء القوم مسلمين»، وأراد أن جميعهم مسلمون لم يجز ذلك بالاتفاق.

الثالث: إذا قيل بزيادتها كان المعنىٰ باطلاً.

الرابع: الزيادة علىٰ خلاف الأصل، فلا يجوز ادعاؤها بغير دليل». انتهىٰ كلامه.

وهذه فائدة عارضة، ذكرتها علىٰ سبيل التنبيه، لوقوع ناس كثر فيها.

والمقصود: أن العبد لا يستغني عن الصبر في حالة من الأحوال، ويكفي من فضل الصبر، أن الله تعالىٰ وصف نفسه به، كما في حديث أبي موسىٰ، أن النبي ﷺ

قال: ليس أحد - أو ليس شيء - أصبر على أذى سمعه؛ من الله تعالى، إنهم يدعون له ولداً، وإنه ليعافيهم ويرزقهم». رواه البخاري.

قال القرطبي في تفسيره: «وصف الله تعالى بالصبر إنما هو بمعنى الحلم، ومعنى وصفه تعالى بالحلم، هو تأخير العقوبة عن المستحقين لها، ووصفه تعالى بالصبر لم يرد في التنزيل، وإنما ورد في الحديث، وتأوله أهل السنة على تأويل الحلم، قاله: ابن فورك».انتهى كلامه.

وذكر عند قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة:١٥٣]، قلت: وقد جاء في أسمائه الحسنى «الصبور»، وجاء في أسمائه «الحليم»، فلو كان «الصبور» بمعنى «الحليم» كان الاسمان الشريفان مترادفين، والأصل في الأسماء التغابر، والله أعلم.



تعليق الشيخ سالم موريدة حفظه الله

﴿ الباب التاسع ﴾

في أن الصبر من أشق الأشياء علىٰ النفوس

وهذا الباب ينقسم فيه الصبر إلىٰ قسمين:

أحدهما: بحسب قوة الداعي إلىٰ الفعل.

الثاني: بسهولته علىٰ العبد.

فإذا اجتمع في الفعل هذان الأمران كان الصبر عنه أشق، وإن فقدا ـ معـًا ـ يعني قـوة الداعـي وسـهولته ـ سـهل الصـبر عنـه، وإن وجـد أحدهمـا وفقـد الآخـر سـهل الصبر مـن وجـه دون آخر، فمـن لا داعـي لـه إلـىٰ قتـل النفس والسرقة وشـرب الخمـر وأكل الحشيشـة وأنـواع الفـواحش، ولا هـو سـهل عليـه، فصـبره عنـه مـن أيسـر شـيء وأسـهله، ومـن اشـتد داعيـه إلـىٰ ذلـك، وسـهل عليـه فعلـه، فصـبره عنـه أشـق شـيء عليـه، ولهـذا كان صـبر السـلطان عـن الظلـم، وصـبر الشـباب عـن الفاحشـة، وصـبر الغنـي عـن تنـاول اللـذات والشـهوات، منزلتهـم عنـد الله منزلـة عظيمـة عاليـة منيعـة، لا يصـل إليهـا إلا مـن صـبر مثـل صبرهـم، وكذلـك مـن صـبر علـىٰ مـوت أولاده وأبويـه وأقاربـه وأصحابـه ونحوهـم، وهـو مـع ذلـك صابـر محتسـب، يأمـر أهلـه بالصـبر، وينهاهـم عـن لطـم الخـدود وشـق الجيـوب، وعـن كلام مـا لا يجـوز لهـم شـرعـًا، هـذا لـه مـن الثـواب الجزيـل، والأجـر العظيـم، مـا لا يعلمـه إلا الله، فالعبـد، إذا ذاق لـذة المعصيـة، ثـم تـاب وصـبر عنهـا، كانـت توبتـه توبـة صادقـة.

ولقـد بلغنـي عمـن أعرفـه، أنـه تـاب عـن الخمـر، وحلـف بالطـلاق لا يشـربه، ثـم إنـه خالـع، وشـرب.



ولقد رأيت جماعة منهم، ممن حلف بالطلاق الثلاث، لا يلعب بالشطرنج وتاب منه، ومع ذلك يعلم أن أكثر العلماء قالوا بتحريمه، وإنه يصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وأنه يحصل عليه من الحلف الكاذبه والفحش ما هو معروف مشهور، ومع ذلك منهم من خالع ولعب، ومنهم من لعب ووقع عليه الطلاق الثلاث بعد التوبة والحلف.

فالصبر المستمر مع القدرة من غير خوف علىٰ جاهه أو ماله أو عرضه، صبر علىٰ المعاصي، ومواظبته علىٰ ما أمره الله تعالىٰ به، صبر علىٰ الطاعات، فإذا فعل ذلك، ابتغاء وجه الله تعالىٰ، ثوابه أن يوفىٰ أجره بغير حساب.

ولهذا روىٰ الإمام أحمد في مسنده أن النبي ﷺ، قال: «**عجب ربك من شاب ليست له صبوة**» .

وفي الصحيح من أبي هريرة، أن النبي ﷺ، قال: «**سبعة يظلهم الله في ظل عرشه، يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله رب العالمين، ورجل تصدق بصدقة فأخفاه حتىٰ لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه**».

ولذلك استحق هؤلاء السبعة أن يظلهم في ظله، لكمال صبرهم، ومشقته علىٰ نفوسهم، فصبر الملك علىٰ العدل مع قدرته علىٰ الظلم والانتقام من رعيته، وصبر الشاب علىٰ عبادة الله ومخالفة هواه، وصبر الرجل علىٰ ملازمة المسجد، وصبر المتصدق علىٰ إخفاء الصدقة حتىٰ عن شماله مع قدرته علىٰ الرياء، وصبر المدعو إلىٰ الفاحشة مع جمال الداعي، وصبرالمتحابين في الله في اجتماعهما وانفرادهما، وصبر الباكي من خشية الله علىٰ كتمان ذلك عن الناس، فهذه الأمور فيها مشقة علىٰ النفوس، فالصبر عليها، بتوفيق الله وفضله وإحسانه إلىٰ عبده، صبر عظيم جميل.

﴿ فصل ﴾

في عقوبة من لم يصبر مع تمكنه من الصبر

ولما كان الداعي، في حق بعض الناس، ضعيفًا، ولم يصبروا مع تمكنهم من الصبر، كان عقوبتهم عند الله تعالىٰ أشد من عقوبة غيرهم، كالشيخ الزاني، والملك الكذاب، والفقير المختال، وإنما كانوا أشد عقوبة من غيرهم، لسهولة التصبر عن هذه المحرمات عليهم، ولضعف دواعيها في حقهم، فكان تركهم الصبر عنها دليلاً علىٰ تمردهم علىٰ الله تعالىٰ، وعتوهم عليه، ولهذا كان الصبر علىٰ معاصي اللسان والفرج، من أشق أنواع الصبر، لشدة الداعي إليهما وسهولتهما، فإن معاصي اللسان فاكهة الإنسان، لسرعة حركته وسهولة إطلاقه.

وثبت أن النبي ﷺ قال: «**وهل يكب الناس في النار علىٰ وجوههم - أو علىٰ مناخرهم - إلا حصائد ألسنتهم؟!**».

فيجب لجامه بلجام الشرع، لهذا قال النبي ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت**».

فإن اللسان رحب الميدان في الخير والشر، فمن أطلقه ولم يضبطه بالشرع، سلك به الشيطان في المهالك، وكبه في النار عند مالك، فالكمال إمساكه مطلقًا عن فضول الكلام، إلا في خير، وما لا بد منه، فإن اللسان لا تؤمن غائلته، وخطره عظيم.

ولسهولة حركته، وسرعة إطلاقه، قد بلي أكثر الناس في زماننا بآفاته، التي هي فاكهة وسرور مجالسهم: كالغيبة والنميمة والكذب، والمراء والجدال والخوض في الباطل، والخصومات وفضول الكلام، والتحريف والزيادة والنقصان، وتزكية النفس تفريحًا وتعرضًا، وحكاية كلام الناس، والطعن علىٰ ما يبغضه وتزكية من

يحبه، وهتك المستورات، ونحو ذلك.

فيتفق قوة الداعي وسرعة حركة اللسان، فيضعف الصبر، ولهذا قال النبي ﷺ لمعاذ: «**أمسك عليك لسانك**»، وقد تقدم الحديث.

فإذا صارت هذه الآفات التي ذكرناها للسان عادة وسجية، فإنه يشق علىٰ العبد الصبر عنها إلا من عصمه الله، فآفات اللسان مهلكة ولها حلاوة في القلب، وعليها بواعث من الطبع، نسأل الله السلامة منها.

لهذا نجد كثيراً من المتفقهة وغيرهم، ممن ينتسب إلىٰ الورع، يتورع من استناده إلىٰ مخدة من الحرير، أو من قعوده علىٰ بساط حرير، أو من شربه من قدح زجاج مموه بالذهب، أو الجلوس لحظة واحدة في فرح وغيره، مع ما فيه من الخلاف، ولا يتورع من إطلاق لسانه في الكبائر من الذنوب، كالغيبة والنميمة، والتفكه في أعراض الخلق.

وكذا إذا وقع الكلام في تفسير كلام الله، أو في مسند رسول الله، أطلق لسانه فيهما بغير علم، مع علمه بقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾[**الإسراء**].

ثم أيضاً ممن يتورع عن الحبة من الحرام، بل عن الفلس المحرم، وعن القطرة من الخمر، ويتحرز عن مثل رأس الإبرة من النجاسة، ولا يبالي بارتكاب الفرج المحرم، سواء كان صبياً أو امرأة.

كما يحكىٰ: أن رجلاً خلا بامرأة أجنبية، فلما أراد جماعها، قال: «يا هذه غطي وجهك، فإن النظر إلىٰ وجه الأجنبية حرام».

والمقصود: أن الصبر علىٰ الأشياء الذي اعتادها الإنسان، وورد الشرع بذمها، من أشق الأشياء علىٰ النفوس، إلا من وفقه الله لذلك.



﴿ فصل ﴾

في علامات الصبر ورضا النفس عن قضاء الله تعالىٰ

ومن علامات الصبر، عدم مشقته علىٰ النفس عند ورود المصائب، وكف الكف عن تمزيق الثياب ولطم الخدود، وحبس اللسان عن الاعتراض علىٰ المقادير والتسخط، والامتناع من كل شيء يوجب إظهاره، حتىٰ إن السلف كرهوا الأنين.

قال الحكماء: «العاقل يفعل أول يوم، ما يفعله الجاهل بعد خمسة أيام».

وقد قال  للأشعث بن قيس: «إنك إن صبرت إيمانًا واحتسابًا،وإلا سلوت كما تسلو البهائم».

❁ ❁ ❁



﴿ الباب العشرون ﴾

في الرضا بالمصيبة

اعلم - رحمك الله - أن الرضا بالمصائب، أشق علىٰ النفوس من الصبر، وقد تقدم أن الصبر من أشق الأشياء علىٰ النفوس.

وفي جامع الترمذي أن النبي ﷺ قال: «**إذا أحب الله قومًا ابتلاهم، فمن رضي، فله الرضا، ومن سخط، فله السخط**».

وقد تنازع العلماء والمشايخ، من أصحاب الإمام أحمد، وغيرهم، في الرضا بالقضاء، هل هو واجب؟ أو مستحب؟ علىٰ قولين:

فعلىٰ الأول يكون من أعمال المقتصدين، وعلىٰ الثاني يكون من أعمال المقربين، ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية.

فالعبد قد يصبر علىٰ المصيبة ولا يرضىٰ بها، فالرضا أعلىٰ من مقام الصبر، لكن الصبر اتفقوا علىٰ وجوبه، والرضا اختلفوا علىٰ وجوبه، والشكر أعلىٰ من مقام الرضا، فإنه يشهد المصيبة نعمة، فيشكر المبلي عليها.

قال عمر بن عبد العزيز: «أما الرضا، فمنزلة عزيزة أو منيعة، ولكن قد جعل الله في الصبر معولاً حسنًا».

وقال محمد بن إدريس الشافعي: حدثنا زهير بن عباد، عن السري ابن حيان، قال: قال عبد الواحد بن زيد: «الرضا باب الله الأعظم، وجنة الدنيا، وسراج العابدين».

وروىٰ ابن أبي الدنيا بإسناده، عن أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**الصبر رضا**» ، فهذا الحديث، فيه بشارة عظيمة لأهل المصائب، إذ سمىٰ الصبر رضا.

وبإسناده أيضًا إلىٰ أبي مسلم، قال أبو مسلم: «دخلت علىٰ أبي الدرداء في اليوم الذي قبض فيه، وكان عندهم في العز كأنفسهم، فجعل أبو مسلم يكبر، فقال أبو الدرداء: أجل، فهكذا فقولوا، فإن الله إذا قضىٰ بقضاء، أحب أن يرضىٰ به.

وذكر ابن أبي الدنيا، في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ﴾ [التغابن:١١]، قال علقمة بن أبي وقاص: «هي المصيبة، تصيب الرجل، فيعلم أنها من عند الله، ويسلم لها ويرضىٰ».

وقال: حدثنا الحسين، حدثنا عبد الله، حدثنا علي بن الحسن العامري، حدثنا أبوه بدر، حدثنا عمر بن ذر، قال: بلغنا أن أم الدرداء كانت تقول: «إن الراضين بقضاء الله، الذين ما قضىٰ الله لهم رضوا به، لهم في الجنة منازل يغبطهم بها الشهداء يوم القيامة».

وبهذا الإسناد، عن سليمان بن المغيرة، قال: «كان فيما أوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ داود -عليه السلام-، إنك لن تلقاني بعمل، هو أرضىٰ لي عنك، ولا أحط لوزرك، من الرضا بقضائي، ولن تلقاني بعمل، هو أعظم لوزرك، ولا أشد لسخطي عليك، من البطر، فإياك يا داود والبطر».

وقال الشافعي: «سمعت ابن أبي الحواري يقول: سمعت أبا سليمان الداراني يقول: أرجو أن أكون رزقت من الرضا طرفًا، لو أدخلني النار لكنت بذلك راضيًا».

وقال ابن زيد: نظر علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلىٰ عدي بن حاتم كئيبًا، فقال: يا عدي مالي أراك كئيبًا حزينًا؟ قال: «وما يمنعني، وقد قتل أبنائي، وفقئت عيني؟!» فقال: «يا عدي، من رضي بقضاء الله كان له أجر، ومن لم يرض بقضاء الله حبط عمله»، ذكره ابن أبي الدنيا.

وقال أبو عبد الله البراثي: «من وهب له الرضا فقد بلغ أقصىٰ الدرجات».

فإن قيل: غالب الناس يصبرون ولا يرضون، فكيف يتصور الرضىٰ بالمكروه؟

يقال: إن نفور الطبع عن المصائب، لا ينافي رضا القلب بالمقدور، فإنا نرضى القضاء، وإن كرهنا المقتضى!

قيل لبعض الصالحين: قتل ولدك في سبيل الله! فبكى، فقيل له: أتبكي وقد استشهد؟ ! فقال: «إنما أبكي، كيف كان رضاه عن الله عَزَّ وَجَلَّ، حين أخذته السيوف».

وذكر أبو الفرج بن الجوزي، بسنده، عن عمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «اللهم لو أعلم أنه أرضى لك، أن أوقد ناراً عظيمة، فأقع فيها، لفعلت، ولو أعلم أنه أرضى لك عني، أن ألقي نفسي في الماء، فأغرق، لفعلت».

وعن مصعب بن ماهان، عن سفيان الثوري، قال: في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾[**الحج**]، قال: «المطمئنين الراضين بقضائه المستسلمين له».



﴿ فصل ﴾

في أقوال السلف والخلف في الرضا

وقد أطنب الناس - من السلف والخلف - في الرضا، وبسطوا القول فيه، واعتنوا به وهذا يدل علىٰ علو منزلته.

قال عمرو بن أسلم العابد: سمعت أبا معاوية الأسود يقول: في قوله تعالىٰ: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾[النحل:٩٧]، قال: «الرضا والقناعة».

وذكر ابن أبي الدنيا بإسناده، رفعه إلىٰ النبي ﷺ، قال: «**جلساء الرحمن، تبارك وتعالىٰ، يوم القيامة: الخائفون الراضون، المتواضعون الشاكرون الذاكرون**».

وبإسناده، إلىٰ محمد بن كعب، رفعه، أنه قال: «**أي رب، أي خلقك أعظم ذنبًا؟ قال: الذي يتهمني، قال: رب وهل يتهمك أحد؟ ! قال: نعم، الذي يستجيرني، ولا يرضىٰ بقضائي**».

قال مالك بن أنس: «بلغني أن أبا الدراء، دخل علىٰ رجل وهو يموت، وهو يحمد الله تعالىٰ، فقال أبو الدراء: أصبت، إن الله تعالىٰ إذا قضىٰ أحب أن يرضىٰ به».

وروىٰ ابن أبي الدنيا بإسناده، عن ابن عون، أنه قال: «أرض بقضاء الله علىٰ ما كان من عسر ويسر، فإن ذلك أقل لغمك، وأبلغ فيما تطلب من أمر آخرتك، واعلم، أن العبد لن يصيب حقيقة الرضا، حتىٰ يكون رضاه عند الفقر والبلاء، كرضاه عند الغنىٰ والرخاء، كيف تستقضي الله في أمرك، ثم تسخط إن رأيت قضاءه مخالفًا لهواك؟! ولعل ما هويت من ذلك، لو وفق لك، لكان فيه هلكك، وترضىٰ قضاءه إذا وافق هواك، وذلك لقلة علمك بالغيب، وكيف تستقضيه؟ إن كنت كذلك ما أنصفت من نفسك، ولا أصبت باب الرضا!!»



وروىٰ أبو بكر بن أبي الدنيا أيضـًا، قال: حدثنا الحسين، ثنا عبد الله، حدثني المروزي، قال: قال حفص بن حميد: «كنت عند عبد الله بن المبارك بالكوفة حين ماتت امرأته، فسألته ما الرضا؟ قال: الرضا أن لا يتمنىٰ خلاف حاله، فجاء أبو بكر بن عياش فعزىٰ ابن المبارك ـ قال حفص: ولم أعرفه ـ فقال عبد الله: سله عما كنا فيه، فسألته، فقال: من لم يتكلم بغير الرضا فهو راض».

قال حفص: وسألت الفضيل بن عياض، فقال: «ذاك للخواص»، ثم قال قادم الديلمي العابد قال: قلت للفضيل بن عياش: من الراضي عن الله؟ قال: «الذي لا يحب أن يكون علىٰ غير منزلته التي جعل فيها».

وقال أبو عبد الله البراثي: «لم يرد الآخرة، أرفع درجات من الراضين عن الله ﷻ علىٰ كل حال».

وقال سيار: «دخلت علىٰ أبي العالية في مرضه الذي مات فيه، فقال: إن أحبه إلي، أحبه إلىٰ الله ﷻ».

وقال عمرو بن أسلم العابد: سمعت أبا معاوية الأسود يقول: في قوله تعالىٰ: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [**النحل**:٩٧]، قال: الرضا والقناعة.

ذكرهن ابن أبي الدنيا في كتاب الرضا، ثم ذكر عن مصعب بن ماهان، عن سفيان الثوري، قال في قوله تعالىٰ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ قال: «المطمئنين الراضين بقضائه المستسلمين له».

وعن وهب بن منبه، قال: وجدت في زبور داود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «يا داود، هل تدري أي الفقراء أفضل؟ الذين يرضون بحلمي وبقسمي، ويحمدوني علىٰ ما أنعمت عليهم، هل تدري يا داود أي المؤمنين أعظم عندي منزلة؟ الذي هو بما أعطي أشد فرحـًا بما حبس».

وروىٰ الإمام أحمد في كتاب الزهد، عن زياد ابن أبي حسان، أنه شهد عمر بن عبد العزيز ـ رحمة الله عليه ـ حين دفن ابنه عبد الملك، استوىٰ قائمـًا، وأحاط

به الناس، فقال: «والله يا بني، لقد كنت باراً بأبيك، والله ما زلت منذ وهبك الله لي مسروراً بك، ولا والله ما كنت قط أشد سروراً، ولا أرجىٰ لحظي من الله فيك، منذ وضعك الله في المنزل الذي صيرك إليه، فرحمك الله، وغفر لك ذنبك، وجزاك بأحسن عملك، ورحم كل شافع يشفع لك بخير شاهد وغائب، رضينا بقضاء الله، وسلمنا لأمره، والحمد لله رب العالمين»، ثم انصرف.

وقال سفيان الثوري: قال عمر بن عبد العزيز لابنه: «كيف تجدك؟ قال: في الموت، قال: لأن تكون في ميزاني أحب إلي من أن أكون في ميزانك، فقال: والله يا أبه، لأن يكون ما تحب أحب إلي من أن يكون ما أحب».

وروىٰ الإمام أحمد في الزهد بإسناده، عن الحسن، قال: حدثني الأحوص، قال: دخلنا علىٰ ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعنده بنون له ثلاثة، كأنهم الدنانير حسناً، فجعلنا نتعجب من حسنهم، فقال لنا: كأنكم يغبطونني بهم؟ قلنا: أي والله، لمثل هؤلاء يغبط المسلم، فرفع رأسه إلىٰ سقف بيت له صغير، قد عشش فيه خطاف وباض، فقال: «والذي نفسي بيده، لأن أكون نفضت يدي عن تراب قبورهم، أحب إلي من أن يسقط عش هذا الخطاف وينكسر بيضه».

وبإسناده عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال يوم مات أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «رضينا عن الله قضاءه، وسلمنا له أمره، إنا لله وإنا إليه راجعون».





﴿ فصل ﴾

فيما سنه رسول الله ﷺ لأهل المصيبة وما نهىٰ عنه.

قد تقدم ما سنه رسول الله ﷺ لأهل المصيبة، وما نهىٰ عنه، ومما سنه الخشوع، والبكاء الذي لا صوت معه، وحزن القلب، «**وكان يفعل ذلك ويقول: تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضي الرب**»، وكذلك الحمد والاسترجاع، وقد تقدم.

ومن سنته: الرضا عن الله في المصيبة وغيرها، ولم يكن ذلك منافيًا لدمع العين وحزن القلب.

وأشد الناس حرصًا علىٰ رضىٰ مولاهم الأنبياء، فقد روىٰ ابن أبي الدنيا بإسناده، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**إنا معشر الأنبياء يضاعف علينا البلاء تضعيفًا**»، قال: **فقلنا سبحان الله! قال**: «**أفعجبتم؟ إن أشد الناس بلاءً الأنبياء والصالحون، الأمثل فالأمثل، قلنا سبحان الله! قال**: «**أفعجبتم؟ إن كان النبي من الأنبياء، ليتدرع العباءة من الحاجة، لا يجد غيرها**»، **قلنا: سبحان الله! قال**: «**أفعجبتم؟ إن كانوا ليفرحون بالبلاء، كما تفرحون بالرخاء**».

ولهذا كان أرضاهم، وأرضىٰ الخلق عن الله، نبينا محمد ﷺ في قضائه وقدره، وأعظمهم له حمداً، ولم يمكنني حصر ما وقع له في ذلك لكثرته وشهرته، ومع ذلك بكىٰ يوم مات ابنه إبراهيم، رأفةً ورحمةً منه للولد، ورقةً عليه، وقلبه ﷺ ممتلئ بالرضا عن الله تعالىٰ وشكره له، واللسان مشتغل بحمده وذكره.

ولما ضاق هذا المشهد والجمع بين الأمرين -يعني رحمة الولد والرقة عليه والرضا عن الله تعالىٰ- علىٰ أنّ بعض العارفين من السلف، يوم مات ولده، جعل يضحك، فقيل له: تضحك في مثل هذه الحال؟ فقال: «إن الله تعالىٰ قضىٰ بقضاء

فأحببت أن أرضىٰ بقضائه».

فأشكل هذا علىٰ جماعة من العلماء وأرباب الأحوال والتصوف، وقالوا: كيف يبكي رسول رب العالمين ﷺ يوم مات ولده، وهو أرضىٰ الخلق عن الله، ويبلغ الرضا بهذا العارف إلىٰ أن ضحك يوم مات ولده؟!

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «هدي نبينا ﷺ أكمل من هدي هذا العارف، فإنه أعطىٰ ﷺ العبودية حقها، فاتسع قلبه للرضا عن الله ورحمة الولد والرقة عليه، فحمد الله ورضي عنه في قضائه، وبكىٰ رحمةً ورقةً، فحملته الرحمة علىٰ البكاء، وعبوديته لله ومحبته له علىٰ الرضا والحمد، وهذا العارف ضاق قلبه عن اجتماع الأمرين، ولم يتسع باطنه لشهودهما والقيام بهما، فشغلته عبودية الرضا عن عبودية الرحمة والرقة، والله تعالىٰ أعلم» انتهىٰ.

قلت وما يؤيد ما ذكره الشيخ رحمه الله قصة نبي الله يعقوب إسرائيل عليه السلام، إذ حكىٰ الله تعالىٰ عنه أنه ابيضت عيناه من الحزن، وقال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ و ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فمشهده أوسع من مشهد هذا العارف، بل نبي الله يعقوب أبلغ من هذا العارف، فإن يعقوب كان له عدة من الولد، ومع هذا فهذه الرقة والرحمة التي عنده، مع الرضا الكامل، واستعمل الرضا والتفويض في قوله: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ واستعمل الرقة والرحمة عند ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ فطريقة يعقوب عليه السلام أفضل من طريقة هذا العارف، مع كثرة أولاد يعقوب، وهذه رحمته ورقته، وأما هذا العارف - علىٰ ما قيل - لم يكن له ولد سواه.

وروىٰ الإمام أحمد في كتاب الزهد بإسناده، عن ثابت البناني: أن صلة بن أشيم، كان في مغزىٰ له، ومعه ابنه، فقال له: «أي بني، تقدم فقاتل، حتىٰ أحتسبك»، فجاء فقاتل حتىٰ قتل، ثم تقدم أبوه فقتل، فاجتمعت النساء عند أمه معاذة العدوية، فقالت: «مرحبًا، إن كنتن جئتن لتهنئنني مرحبًا بكن، وإن كنتن جئتن لغير ذلك



فارجعن».

وذكر أبو الفرج بن الجوزي: قال أبو جحيفة: «إنا لمتوجهون إلىٰ همذان، ومعنا رجل من الأزد، فجعل يبكي، فقلت: أجزع هذا؟ قال: لا، ولكن تركت ابني في الرحل، فلوددت أنه كان معي، فدخلنا الجنة جميعًا».



﴿ فصل ﴾

في تحقيق الرضا وأنه من عمل القلب

الرضا من أعمال القلوب، لكن وإن كان من أعمال القلوب، فكماله هو الحمد، حتىٰ إن بعضهم فسر الحمد بالرضا، ولهذا جاء في الكتاب والسنة: حمد لله علىٰ كل حال، وذلك يتضمن الرضا بقضائه.

وفي الحديث: «**أول من يدعىٰ إلىٰ الجنة الحمادون، الذين يحمدون الله في السراء والضراء**» .

وفي الحديث مرفوعًا، أن النبي ﷺ كان إذا أتاه أمر يسره، قال: «**الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات**»، **وإذا أتاه أمر يسوؤه قال**: «**الحمد لله علىٰ كل حال**»
.

وقد تقدم في مسند الإمام أحمد من حديث أبي موسىٰ الأشعري، أن النبي ﷺ قال: «**إذا قبض الله ولد العبد، يقول الله لملائكته: أقبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم، فيقول: ماذا قال؟ فيقولون حمدك واسترجع، فيقول الله عز وجل: ابنوا لعبدي بيتًا في الجنة، وسموه بيت الحمد**» .

ومحمد نبينا ﷺ هو صاحب لواء الحمد، وأمته هم الحمادون، الذين يحمدون الله في السراء والضراء، والرضا.

والحمد علىٰ الرضا له مشهدان:

أحدهما: علم العبد، بأن الله سبحانه مستوجب لذلك، مستحق له لنفسه، أحسن كل شيء خلقه، وأتقن كل شيء، وهو العليم الحكيم.

الثاني: أن يعلم أن اختيار الله لعبده المؤمن خير من اختياره لنفسه، كما روىٰ مسلم في صحيحه، عن النبي ﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده، لا يقضي الله للمؤمن



قضاءً، إلا كان خيراً، وليس ذلك إلا للمؤمن: إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له».

فأخبر ﷺ أن كل قضاء يقضيه الله للمؤمن الذي يصبر على البلاء ويشكر على الرخاء فهو خير له، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾﴾[إبراهيم].

فمن لا يصبر على البلاء، ولا يشكر على الرخاء، فلا يلزم أن يكون القضاء خيراً له، ولهذا أجيب من أورد على هذا، بما يقضى على المؤمن من المعاصي، بجوابين:

أحدهما: أن هذا إنما يتناول ما أصاب العبد لا ما يفعله، كما في قوله تعالى: ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾[**النساء**:٧٩].

وكقوله تعالى أيضاً: ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾[**الأعراف**]. أي: «السراء والضراء».

الثاني: أن هذا في حق المؤمن الصابر الشاكر، والذنوب تنقص الإيمان، فإذا تاب العبد أحبه الله، وقد ترتفع درجته بالتوبة.

قال بعض السلف: «كان داود عَلَيْهِ السَّلَامُ، بعد التوبة، خيراً منه قبل الخطيئة، فمن قضي له بالتوبة كان كما قال سعيد بن جبير: إن العبد ليعمل الحسنة، فيدخل بها النار، وإن العبد ليعمل السيئة، فيدخل بها الجنة، وذلك أنه يعمل الحسنة، فتكون نصب عينيه ويعجب بها، ويعمل السيئة، فتكون نصب عينيه، فيستغفر الله ويتوب إليه منها».

وثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال: «**الأعمال بالخواتيم**».

والمؤمن إذا فعل سيئة، فإن عقوبتها تندفع بعشرة أسباب:

أحدهما: أن يتوب توبة نصوحاً ليتوب الله عليه، فإن التائب من الذنب كمن

لا ذنب له.

الثاني: أن يستغفر الله فيغفر الله تعالىٰ له.

الثالث: أن يعمل حسنات يمحوها لقوله: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾[هود: ١١٤].

الرابع: أن يدعو له إخوانه المؤمنون ويشفعون له حيًا وميتًا.

الخامس: أن يهدي له إخوانه المؤمنون من ثواب أعمالهم ما ينفعه الله به.

السادس: أن يشفع فيه نبينا محمد ﷺ.

السابع: أن يبتليه الله في الدنيا بمصائب، في نفسه وماله، وأولاده وأقاربه، ومن يحب، ونحو ذلك.

الثامن: أن يبتليه في البرزخ بالفتنة والضغطة، وهي عصر القبر، فيكفر بها عنه.

التاسع: أن يبتليه الله في عرصات القيامة من أهوالها بما يكفر عنه.

العاشر: أن يرحمه أرحم الراحمين.

فمن أخطأته هذه العشرة، فلا يلومن إلا نفسه، كما قال تعالىٰ في الأحاديث الإلهيات: «**إنما هي أعمالكم، أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً، فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك، فلا يلومن إلا نفسه**». ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية.

والمقصود أن المؤمن إذا كان يعلم أن القضاء خير له، فيرضىٰ عن الله بما قسم له، كان قد رضي بما هو خير له.

وفي الحديث: عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «إن الله يقضي بالقضاء، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط».





تعليق الشيخ عادل مقراني حفظه الله

﴿ الباب الحادي والعشرون ﴾

فيما يقدح في الصبر والرضا وينافيهما

قد تقدم أن الصبر اعتراف العبد بالله بما أصابه منه، واحتسابه عند الله، وأنه حبس النفس عما لا يحسن فعله ولا يجمل، وحبس اللسان عما لا يحسن قوله، فإذا كان معنىٰ هذه المقالة أن الصبر حبس اللسان عن الشكوىٰ إلىٰ غير الله، والقلب عن التسخيط، والجوارح عن لطم الخدود، وخمش الوجوه، وشق الثياب، ونحو ذلك، وأن العبد يرضىٰ عن الله فيما يفعله به مما يحب وقوعه، ومما يكره وقوعه.

فإذا وقع من العبد عكس ما ذكرته كان متلبسًا بالنقائص والرذائل، فمن شكا ما به إلىٰ مخلوق مثله، كان قد شكا ربه إلىٰ بعض مخلوقاته، فمثله كمثل من شكا من يرحمه ويلطف به ويعافيه وبيده ضره ونفعه، إلىٰ من لا يرحمه وليس بيده نفعًا ولا ضرًا، فهذا من عدم المعرفة وضعف الإيمان شكاية الضار النافع الذي بيده أزمة الأمور، إلىٰ من لا يضر ولا ينفع.

قال شقيق البلخي: «من شكا مصيبة نزلت به إلىٰ غير الله، لم يجد في قلبه لطاعة الله حلاوة أبدًا».

وأما إخبار المخلوق بحاله لا علىٰ وجه الشكوىٰ، فإن كان للاستعانة بأن يرشده أو يعاونه أو يوصله إلىٰ زوال ضره بما ينفعه مما هو أخبر منه به، كالحجام يحجبه ويقلع ضرسه، أو رجل صالح يدعو له، فهذه الأمور علىٰ هذا الوجه لم تقدح في صبره، لأن هذا كإخبار المريض الطبيب بحاله، وإخبار المبتلي في جسده

ببلائه لمن يرجو أن يكون فرجه على يديه، وكذلك إخبار المظلوم لمن ينتصر به، وإخبار المبتلى في دينه لمن هو مسترشد الهداية، ليبين له طريق الهداية إن وفق لها.

وقد ثبت أن النبي ﷺ كان إذا دخل على المريض، سأله عن حاله، ويقول: «كيف تجدك؟» وهو استخبار منه واستعلام بحاله.

وأما الأنين فهل يقدح في الصبر؟ فيه روايتان عن الإمام أحمد:

قال القاضي أبو الحسين: أصح الروايتين الكراهة، لما روي عن طاووس، أنه كان يكره الأنين في المريض.

وقال مجاهد: «يكتب على ابن آدم مما سطر به، حتى أنينه في مرضه» انتهى.

وقال جماعة من العلماء: «الأنين شكوى بلسان الحال، فينافي الصبر».

وقال عبد الله بن الإمام أحمد: قال لي أبي في مرضه الذي توفي فيه: «أخرج إلي كتاب عبد الله بن إدريس، فأخرجت الكتاب، فقال: أخرج أحاديث ليث بن أبي سليم، فأخرجت أحاديث ليث بن أبي سليم، فقال: اقرأ علي أحاديث الليث، قال: قلت لطلحة: إن طاووسًا كان يكره الأنين في المرض، فما سمع له أنين حتى مات، فما سمعت أبي أن في مرضه ذلك إلى أن توفي».

والرواية الثانية: أنه لا يكره ولا يقدح في الصبر، بل قد يقدح في الرضا.

قال بكر بن محمد عن أبيه: «سئل الإمام أحمد عن المريض، يشكو ما يجد من الوجع! فقال: يعرف فيه شيئًا عن رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، حديث عائشة: «وا رأساه! وجعل يستحسنه» .

وقال المروزي: دخلت على أبي عبد الله أحمد بن حنبل، وهو مريض، فسألته، فتغرغرت عينيه، وجعل يخبرني ما مر به في ليلته من العلة.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله: «اعلم أن الأنين على قسمين: أنين شكوى،



فيكـره، وأنيـن اسـتراحة وتفريـج، فـلا يكـره» والله أعلـم.





﴿ فصل ﴾

في أن شق الثياب ولطم الخدود ينافي الصبر والرضا

ومما ينافي الصبر والرضا، ما يفعله أكثر الناس في زماننا عند المصيبة، من شق ثيابهم، ولطم خدودهم، وخمش وجوههم، ونتف شعورهم، والتصفيق بإحدىٰ اليدين علىٰ الأخرىٰ، ورفع أصواتهم عند المصيبة.

ولقد حضرت عند شخص، حين فارق الدنيا، وهو من الجند، فحين خرجت روحه، أتوا بجعبة نشاب، فكسروها بمجموعها، واحدة بعد واحدة عليه، وأتوا أيضًا بعدة الحرب فرموها عليه، وأنا مع ذلك أعظم وأقول لهم: «هذا حرام، نهىٰ الله ورسوله عن ذلك، وهذا فيه إضاعة مال»، فقال بعضهم لي: لم يصبك ما أصابنا، فخرجت عنهم، ثم إنهم بعد ذلك ندموا علىٰ ما فعلوا من إتلاف ما أتلفوه.

ولهذا قال النبي ﷺ: «**إنما الصبر عند الصدمة الأولىٰ**» لأن في تلك الحالة هيجان الحزن، واستغراق الذهن، وذهول العقل بما دهمه، وتمكن الشيطان منه، فإن الشيطان - لعنه الله دائمًا - يتمكن من بني آدم عند ذهول عقلهم: إما بسكر كما وقع في قصة هاروت وماروت، وهي مشهورة حين دعتهما المرأة إلىٰ قتل الولد، أو السجود للصنم، أو شرب القدح من الخمر مراراً، وأنهما شربا القدح من المسكر، فلما شربا سكرا، فأتيا كل ما أمرتهما به.

وكذلك ذهول العقل عند العشق، وعند الولاية، وعند كثرة المال، وعند المصيبة، فكل هذه الأمور العارضة للعبد في الغالب يحصل له بها ذهول العقل، فيتمكن الشيطان بها منه.

نسأل الله العافية، ودوام العافية، والثبات في الأمر، والعزيمة علىٰ الرشد،



فإن النبي ﷺ كان يسأل الله في دعائه: «**اللهم إني أسألك الثبات في الأمر**» الدعاء المشهور.

وكان يقول: «**اللهم يا مثبت القلوب ثبت قلبي علىٰ دينك**» .

فالثبات في الأمور مطلوب شرعًا، كما أن العبد نهي عن الأمور المذمومة من اللجاج والطيش، والعجلة والحدة، وافتقاد الحزن، وغير ذلك من الأمور المذمومة التي لا أحصيها عدداً.

ويحًا لمن يقدم علىٰ الله تعالىٰ مع هذه الأمور المذمومة التي نهىٰ الشرع عنها، غير تائب منها، معتمداً علىٰ صومه وصلاته وحجه وعبادته، وهومع ذلك فرح مستبشر، كأنه قد جاز الصراط، وأعطي البراءة، وجاءه البشير من الله تعالىٰ بالفوز والخلاص! ويحًا لمن يعتز بأعماله الظاهرة، وباطنه مثل المزابل! نسأل الله تعالىٰ حسن التوفيق.



﴿ فصل ﴾

في البكاء والحزن الصامت لا ينافي الرضا والصبر

وأما البكاء والحزن من غير صوت ولا كلام محرم، فهو لا ينافي الصبر والرضا، وقد تقدم لنا قريباً من ذلك.

قال تعالىٰ حكاية عن يعقوب عليه السلام: ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾[يوسف]، قال قتادة: «كظيم علىٰ الحزن، فلم يقل إلا خيراً».

مع قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾[يوسف:٨٦]، وقوله تعالىٰ - عنه في أول السورة -: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾[يوسف:١٨].

وقد جاء في أثر مرفوع إلىٰ النبي ﷺ: «**من بث لم يصبر**»

لكن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ ابيضت عيناه من البكاء، ولم يناف حزنه وبكاءه صبره، فإنه عَلَيْهِ السَّلَامُ ما شكا بثه وحزنه إلىٰ مخلوق، وإنما شكاه إلىٰ الله.

وروىٰ حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ قال: «**ما كان من العين ومن القلب فمن الله والرحمة، وما كان من اليد واللسان فمن الشيطان**» .

قال خالد بن أبي عثمان: «مات ابن لي، فرآني سعيد بن جبير مقنعاً، فقال لي: إياك والتقنع، فإنه من الاستكانة».

وقال بكر بن عبد الله المزني: «كان يقال: من الاستكانة الجلوس في البيت بعد المصيبة».

وقال عبيد بن عمير: «ليس الجزع أن تدمع العين ويحزن القلب، ولكن الجزع القول السيئ، والظن السيئ».

ومات ابن لبعض قضاة البصرة، فاجتمع إليه العلماء والفقهاء، فتذاكروا ما تبين به جزع الرجل من صبره، فأجمعوا أنه إذا ترك شيئًا مما كان يصنعه فقد جزع.

وقال ابن عبد العزيز: «مات ابن لي نفيس، فقلت لأمه: اتق الله واحتسبيه عند الله واصبري، فقالت مصيبتي به أعظم من أفسدها بالجزع».

وقال عبد الله بن مبارك رَحِمَهُ اللهُ: «أتىٰ رجل يزيد بن يزيد، وهو يصلي، وابنه في الموت، فقال: ابنك يقضي وأنت تصلي؟ فقال: إن الرجل، إذا كان له عمل يعمله، فتركه يومًا واحداً، كان ذلك خللاً في عمله».

وقال ثابت: «أصيب عبد الله بن مطرف بمصيبة، فرأيته أحسن شيء شارة وأطيبه».



﴿ فصل ﴾

في أن من يبتلي بالمصائب هو أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين

ولا بد أن يعلم المصاب، أنّ الذي ابتلاه بمصيبته، أحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين، وأنه سبحانه، لم يرسل البلاء ليهلكه به، ولا ليعذبه، ولا ليجتاحه، وإنما افتقده به، ليمتحن صبره ورضاه عنه وإيمانه، وليسمع تضرعه وابتهاله وليراه طريحاً علىٰ بابه، لائذاً بجنابه، مكسور القلب بين يديه، رافعاً قصص الشكوىٰ إليه.

قال الشيخ الإمام العالم العارف المكاشف عبد القادر الكيلاني - رحمة الله عليه - لابنه: «يا بني، إن المصيبة ما جاءت لتهلكك، وإنما جاءت لتمتحن صبرك وإيمانك، يا بني، القدر سبع، والسبع لا يأكل الميتة» انتهىٰ كلامه.

والمقصود: أن المصيبة كير العبد الذي يسبك بها حاصله، فإما أن يخرج ذهباً أحمر وإما أن يخرج خبثاً كله، كما قيل:

سبكناه، ونحسبه لجيناً *** فأبدىٰ الكير عن خبث الحديد

فإن لم ينفعه هذا الكير في الدنيا فبين يديه الكير الأعظم، فإذا علم العبد، أن إدخاله كير الدنيا ومسبكها، خير له من ذلك الكير والمسبك، وأنه لا بد من أحد الكيرين، فليعلم قدر نعمة الله عليه في الكير العاجل.

فالعبد إذا امتحنه الله بمصيبة، فصبر عند الصدمة الأولىٰ، كما ورد في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: مر النبي ﷺ بامرأة عند قبر، وهي تبكي، فقال لها: «اتق الله واصبري»، فقالت: إليك عني، فإنك لم تصب بمصيبتي ـ ولم تعرفه ـ فقيل لها: إنه النبي ﷺ، فأتت باب النبي ﷺ، فلم تجد عنده بوابين، فقالت: لم أعرفك يا رسول الله! قال: «**إنما الصبر عند الصدمة الأولىٰ**» رواه البخاري.



ولفظ مسلم: «**أتى على امرأة تبكي على صبي لها، فقال لها: «اتق الله واصبري»، فقالت: وما تبالي بمصيبتي؟ فلما ذهب قيل لها: إنه رسول الله! فأخذها مثل الموت، فأتت بابه، فلم تجد على بابه بوابين ...**» وذكر تمام الحديث.

﴿ فصل ﴾

في أنّ الشكوىٰ والتحدث بالمصيبة ينافي الصبر والرضا

ومما يقدح في الصبر والرضا، وينافيهما: إظهار المصيبة والتحدث بها وإشاعتها، سواء كان كلام بها بين الأصحاب أو غيرهم، اللهم إلا أن يقول لأصحابه أو لأقاربه: «مات فلان»، يعني والده أو ولده، ونحو ذلك، وما يريد به إظهار المصيبة، وإنما يريد إعلامهم لأجل الصلاة عليه وتشييعه ونحو ذلك، مما هو من فروض الكفايات ويحصل لهم بذلك القراريط من الأجر، وقد تقدم أن الإعلام بالميت، هل هو نعي أم لا؟ والمقصود أن كتمان المصيبة رأس الصبر.

قال الحسن بن الصباح في مسنده: حدثنا خلف بن تميم، حدثنا زفر بن سليمان، عن عبد العزيز بن أبي رواد، عن نافع، عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: من البر كتمان المصائب والأمراض والصدقة» وذكر أنه من بث لم يصبر.

وروي من وجه آخر من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رفعه إلىٰ النبي ﷺ، قال: »**من كنوز البر كتمان المصائب، وما صبر من بث**«.

ولما نزل في إحدىٰ عيني عطاء الماء، مكث عشرين سنة، لا يعلم به أهله، حتىٰ جاء ابنه يوماً من قبل عينه التي أصيب فيها، فلم يشعر به، فعلم أن الشيخ قد أصيب.

ودخل رجل علىٰ داود الطائي في فراشه، فرآه يزحف، فقال: »إنا لله وإنا إليه راجعون، فقال: مه، لا تعلم بهذا أحداً«.

وقد أقعد قبل ذلك بأربعة أشهر لم يعلم بذلك أحد.

وشكا الأحنف إلىٰ عمه وجع ضرسه، فكرر ذلك عليه، فقال: »ما تكرر



علي؟ لقد ذهبت عيني منذ أربعين سنة، فما شكوتها إلىٰ أحد!«.

ومن المنافاة للصبر والرضا: الهلع عند ورود المصيبة، وهو الجزع، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١﴾ [**المعارج**]، قال الجوهري: »الهلع«: أفحش الجزع، وقد هلع بالكسر فهو هالع وهلوع.

وفي الحديث: «**شر ما في العبد شح هالع، وجبن خالع**» .

قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: »هنا في هذا الحديث أمران: أمر لفظي وأمر معنوي.

فأما اللفظي: فإنه وصف الشح بكونه هالعًا، والهالع صاحبه، وأكثر ما يسمىٰ هلوعًا، ولا يقال: هالع له، فإنه لا يتعدىٰ، وفيه وجهان:

أحدهما: أنه علىٰ النسب، كقولهم: ليل نائم، وشر قائم، ونهار صائم ويوم عاصف، كله عند سيبويه علىٰ النسب، أي ذو كذا.

والثاني: أن اللفظة غيرت عن بابها للازدواج مع خالع، وله نظائر.

وأما المعنوي: فإن الشح والجبن أردىٰ صفتين في العبد، ولا سيما إذا كان شحه هالعًا، أي ملولة في الهلع، وجبنه خالعًا، أي قد خلع قلبه من مكانه، فلا سماحة ولا شجاعة، كما يقال: لا يطرد ولا يشرد« انتهىٰ كلامه.

وروىٰ سعيد بن منصور في سننه: حدثنا إسماعيل بن عياش، عن سليمان بن سليم، عن يحيىٰ بن جابر، أن رجلاً أتىٰ النبي ﷺ، فقال: ما يحبط الأجر في المصيبة؟ قال: »**تصفيق الرجل بيمينه علىٰ شماله، والصبر عند الصدمة الأولىٰ فمن رضي فله الرضىٰ، ومن سخط فله السخط**«.

وذكر بإسناده أيضًا، رفعه إلىٰ النبي ﷺ، قال: »**إن القوم ليصابون بالمصيبة فيجزعون ويهلعون، فما يكون لهم من أجرها شيء فيمر بهم الرجل من**

المسلمين، فيسترجع، فيكتب الله عز وجل له أجر ما أعطاه من تلك المصيبة».

وقال ابن أبي الدنيا: حدثني أحمد بن عبد الأعلىٰ، حدثني شيخ من آل ميمون بن مهران: أن الحجاج أصيب بابن له، فاشتد جزعه عليه، فدخل فغير ثيابه، ومس شيئًا من طيب، وجلس، وأذن للناس، فلم يتكلموا، فقال: »حسبي ثواب الله من كل نكبة، وحسبي بقاء الله من كل هالك، تحدثوا«.





﴿ فصل ﴾

في أن الله تبارك وتعالىٰ يختبر عباده بالمصائب

والله تبارك وتعالىٰ يبتلي عبده، ليسمع شكواه وتضرعه ودعاءه وصبره ورضاه بما قضاه عليه، فهو سبحانه وتعالىٰ يرىٰ عباده إذا نزل بهم ما يختبرهم به من المصائب وغيرها، ويعلم خائنة أعينهم وما تخفي صدورهم، فيثيب كل عبد علىٰ قصده ونيته.

وقد ذم الله تعالىٰ من لم يتضرع إليه ولم يستكن له وقت البلاء، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾[المؤمنون]، والعبد أضعف من أن يتجلد علىٰ ربه ولا يشكو إليه حاله، فإنه إذا كان سادات الخلائق، وهم الأنبياء المعصومون -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين-، قد أثنىٰ الله تعالىٰ عليهم حيث شكوا ما بهم إلىٰ الله تعالىٰ، فقال تعالىٰ عن بعضهم: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾[الأنبياء:٨٧].

وأثنىٰ علىٰ أيوب بقوله: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنبياء: ٨٣].

وعلىٰ يعقوب: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[يوسف:٨٦].

وعلىٰ موسىٰ بقوله: ﴿إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾[القصص] .

وقد شكا إليه خاتم أنبيائه ورسله بقوله: «اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني علىٰ الناس، أنت أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين»، الحديث المشهور في دعاء الطائف، وهو دعاء عظيم، فالشكوىٰ إلىٰ الله تعالىٰ لا تنافي الصبر ولا الرضا، بل إعراض العبد بالشكوىٰ إلىٰ غيره من جهله بخالقه

وعدم رضاه وصبره بما ابتلاه الله تعالىٰ به، والله تعالىٰ يمقت من يشكوه إلىٰ خلقه ويحب من يشكو ما به إليه.

قيل لبعضهم: »كيف تشتكي إلىٰ من لا يخفىٰ عليه خافية في الأرض ولا في السماء؟ فقال:

قالوا: أتشكو إليه *** ما ليس يخفىٰ عليه

فقلت: ربي يرضىٰ *** ذل العبيد لديه

وذكر ابن أبي الدنيا، عن علي بن الحسن، قال: »قال رجل: لأمتحنن أهل البلاء، قال: فدخلت علىٰ رجل بطرسوس، وقد أكلت الأكلة أطرافه، فقلت له كيف أصبحت؟ قال: أصبحت والله وكل عرق، وكل عضو، يألم علىٰ حدته من الوجع، وإن ذلك لبعين الله، أحبه إلي أحبه إلىٰ الله ، ووددت أن ربي قطع مني الأعضاء التي اكتسبت بها الإثم، وأنه لم يبق مني إلا لساني تكون له ذاكراً، قال: فقال له رجل: متىٰ بدأت هذه العلة؟ قال: أما كفاك؟ الخلق كلهم عبيد الله وعياله، فإذا نزلت بالعباد علة، فالشاكي إلىٰ الله ليس يشكي الله إلىٰ العباد«.

❁ ❁ ❁



﴿ الباب الثاني والعشرون ﴾

هل المصائب مكفرات أم مثيبات

وقد اختلف العلماء في هذا الباب اختلافًا كثيراً، وتباينوا فيه تباينًا شديداً، فذهب بعض العلماء إلىٰ أنه يثاب علىٰ كل مصيبة، وذهب طائفة أخرىٰ من العلماء إلىٰ أنه لا يثاب علىٰ المصائب مطلقًا، وإنما يثاب علىٰ الصبر عليها، حتىٰ قطع به ابن عبد السلام في قواعده، وذهب شيخ الإسلام ابن تيمية وجماعة من العلماء إلىٰ أن إطلاق القول بالثواب، كلاهما يرد عليه ما يدفعه، وأن ثم فرقًا مؤثراً نذكره فيما بعد، إن شاء الله.

وقد احتجت كل طائفة بظواهر مرجحة لما ذهبت إليه كما سنذكره بعد.

احتجت طائفة من العلماء إلىٰ أنه يثاب علىٰ كل مصيبة بقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾ [التوبة:١٢٠] الآية.

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ قال: »**ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب، ولا هم ولا حزن، ولا غم ولا أذىٰ، حتىٰ الشوكة يشاكها، إلا كفر الله بها من خطاياه**« ، »الوصب«: الوجع اللازم، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩﴾ **[الصافات:]**. أي لازم ثابت، والنصب: التعب.

وروىٰ الحاكم في المستدرك أن النبي ﷺ قال: »**المصاب من حرم الثواب**«.

وروىٰ ابن ماجة من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: »**ليس الزهادة في الدنيا، بتحريم الحلال ولا بإضاعته، ولكن الزهادة في الدنيا، أن تكون بما في يد الله، أوثق منك بما في يدك، وأن تكون في ثواب المصيبة، إذا أصبت بها،**



أرغب منك فيها لو أنها بقيت لك» رواه الإمام أحمد، موقوفًا عن أبي مسلم الخولاني.

وفي صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال: »**مامن مسلم، يموت له ثلاثة من الولد، لم يبلغوا الحنث إلا أدخله الله الجنة، بفضل رحمته إياهم**».

ورواه أحمد والنسائي: »**ما من مسلمين، يموت لهما ثلاثة من الولد، لم يبلغوا الحنث، إلا غفر لهما**».

وغير ذلك من الأحاديث مما اختصرته.

قال النووي رحمه الله في شرح مسلم عند قوله ﷺ: «**ما من مسلم يشاك بشوكة، فما فوقها، إلا كتبت له بها درجة، ومحيت عنه بها خطيئة**»، وفي رواية: «**إلا رفعه الله بها درجة، أو حط عنه بها خطيئة**».

وفي بعض النسخ «**وحط عنه بها خطيئة**» بغير ألف، وفي رواية: «**إلا كتب له بها حسنة أو حطت عنه بها خطيئة**».

قال: وفي هذه الأحاديث بشارة عظيمة للمسلمين، فإنه قل أن ينفك الواحد منهم ساعة من شيء من هذه الأمور، وفيه تكفير الخطايا بالأمراض والأسقام ومصائب الدنيا وهمومها وإن قلت مشقتها، وفيه رفع الدرجات بهذه الأمور وزيادة الحسنات، وهذا هو الصحيح الذي عليه جماهير العلماء.

وحكى القاضي عياض عن بعض العلماء: »أنها تكفر الخطايا فقط«، ولم يبلغهم هذه الأحاديث الصحيصة الصريحة برفع الدرجات، وكتب الحسنات« انتهى كلامه.

ويؤيد ذلك قول عائشة رضي الله عنها: »ما رأيت رجلاً أشد عليه الوجع من رسول الله ﷺ«.

وقوله ﷺ: »**إني لأوعك مثل رجلين منكم، وإنك لتوعك وعكًا شديداً**«.

وقوله ﷺ: »**أشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل**».



قال جماعة من العلماء: والحكمة في كون الأنبياء أشد بلاءً ثم الأمثل بالأمثل: أنهم مخصصون بكمال الصبر وصحة الاحتساب، والأنبياء معصومون من الخطايا فتعين الثواب، والله أعلم.

وفي حديث المرأة التي كانت تصرع: دليل علىٰ أن الصرع يثاب عليه أكمل ثواب.

وفي صحيح مسلم قالت امرأة: يا رسول الله، دفنت ثلاثة من الولد قال: «**احتظرت بحظار من النار**» .

قال بعض السلف: فقد الثواب علىٰ المصيبة أعظم من المصيبة، فإنه قد ثبت أن النبي ﷺ، قال: «المصاب من حرم الثواب» وقد تقدم.

وتقدم في أثناء الكتاب أحاديث تشهد لهذا القول، والله أعلم.

احتجت الطائفة الأخرىٰ من العلماء ممن أطلق القول بأن المصائب لا يثاب عليها، وإنما يثاب علىٰ الصبر عليها.

بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ١٠﴾ **[الزمر]**، قال ابن عبد السلام في قواعده: «الثواب إنما يكون علىٰ فعل العبد لا علىٰ فعل الله فيه، قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ١٥٧﴾ **[البقرة]**.

فما حصل لهم من صلاة الله عليهم ورحمته لهم وهدايته إياهم بقولهم: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ فالاسترجاع هو سبب في حصول ما ذكر، وكذلك حديث أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله عز وجل لملك الموت: يا ملك الموت، قبضت ولد عبدي؟ قبضت قرة عينيه وثمرة فؤاده؟ قال: نعم، قال: فما قال؟ قال: حمدك واسترجع، قال: ابنوا له بيتاً في الجنة وسموه بيت الحمد**».

فحمده واسترجاعه هو سبب بناء البيت له في الجنة، وتسمية البيت كافية.

قال القاضي عياض: »وقد روي عن عبد الله بن مسعود، أنه قال: الوجع لا يكتب به أجر إنما يكفر الخطايا فقط«.





﴿ فصل ﴾

في سياق كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ

أما ما يحدثه الله من مصائب، فتارة بغير فعل الخلائق كالأمراض ونحوها، وتارة بفعلهم.

وفصل الخطاب: أن المصائب إن تولدت عن عمل صالح، كما تتولد عن الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونحوه، فهذا يثاب عليه، فإن الإنسان يثيبه الله علىٰ عمله وعلىٰ ما يتولد من عمله إذا أقدم علىٰ احتماله، فإن المجاهد قد أقدم علىٰ الجهاد وهو يعلم أنه يؤذىٰ في الله عَزَّ وَجَلَّ، وقد يناله ضرر في جهاده فتموت فرسه، أو يأخذ ماله، أو يضرب أو يشتم ونحو ذلك، كما قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾[التوبة:١٢٠]، فأخبر تعالىٰ، أنه يكتب لهم عمل صالح، بما يصيبهم من التعب والجوع والعطش، ونحو ذلك الذي حصل لهم بسبب الجهاد في سبيل الله عز وجل، فهذه الأمور يغفر الله بها خطاياه، ويؤجر علىٰ هذه المصائب، لأنها حصلت بسبب جهاده فهي مما تولد من عمله، وما تولد عن عمله الصالح من المصائب يثاب عليها.

وأما الجوع والعطش والتعب الذي يحصل من دون ذلك فلا يثاب إلا علىٰ الصبر عليه، فإنه ليس من عمله ولا متولداً من عمل صالح، لكن هو من المصائب التي يكفر الله بها خطاياه.

وأما المصيبة بالولد، فالولد تولد عن جماعه الذي صان نفسه به عن الزنا، وقصد به النسل، وتكثير الأمة، وغض البصر عن المحارم، فإذا حصل له ذلك،

ثم مات الولد، فقد أثيب عليه من جهة، وكفر الله به خطاياه من جهة، لأنه تولد عن عمله.

وأما الأمراض والأسقام فهي تكفر الخطايا.

وقد روي أن أبا عبيدة بن الجراح لما عادوه وقالوا: له أجر، فقال: «ليس لي من الأجر مثل هذه، ولكن المرض حطة يحيط الله بها الخطايا».

فهذا الذي ذكرته هو الفرق بين المصائب التي يثاب عليها، والمصائب التي لا يثاب عليها، فإن بعض الناس يظن أنه يثاب علىٰ كل مصيبة، ومن العلماء من يطلق القول بأن المصائب لا يثاب عليها، وإنما يصاب علىٰ الصبر عليها.

ثم قال بعد ذلك بكلام كثير: «فمن فعل فعلاً صالحاً باختياره، فأوذي، واحتسب ذلك الأذىٰ، كان ذلك الأذىٰ من عمله الصالح الذي يثاب عليه، كالصائم إذا احتسب جوعه وعطشه».

وقد قال ﷺ: «**لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك**»، و«الخلوف» تولد عن صومه بغير اختياره، ولكن تولد عن عمل صالح، وكذلك القائم بالليل، إذا احتسب تعبه وسهره، فإن الأذىٰ الذي يحصل باختيارك في طاعة الله، أنت جلبته علىٰ نفسك باختيارك طاعة الله، فليس هو كمن أوذي بغير اختياره، فإن ذلك أذاه مصيبة محضة، لكن هي حق له علىٰ الظالم.

وقال الشيخ رحمه الله في قول النبي ﷺ: «**لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له**» .

وهي نفسها تكفر خطاياه ويؤجر علىٰ الصبر عليها، ففيها له مغفرة من جهة ما يكفره من الخطايا.

وله فيها رحمة من جهة ما يؤجر علىٰ الصبر عليها، لا سيما إذا اقترن بها توبة



وإنابة إلىٰ الله، وتوكل عليه وتوحيد له وإخلاص الدين له، فإنها تكون من أعظم النعم، ومصيبة تقبل بها علىٰ الله خير لك من نعمة تنسيك ذكر الله.

وقال بعض السلف: »يا ابن آدم، لقد بورك لك في حاجة أكثرت فيها قرع باب سيدك«.

وفي الحديث: »**إذا قالوا للمرض: اللهم ارحمه، يقول الله** ﷻ: »**كيف أرحمه من شيء به أرحمه؟**««.

وفي الأثر: »يا ابن آدم، البلاء يجمع بيني وبينك، والعافية تجمع بينك وبين نفسك«. انتهىٰ.

والمقصود من كلام الشيخ رحمه الله أن كل ما تولد عن عمله الصالح من المصائب أثيب عليه، بخلاف المصائب التي لم تتولد عن عمله، فإنها مكفرات لا مثيبات.



﴿ فصل ﴾

في قوله أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أن المصائب نعمة من نعم الله تعالىٰ

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: »وكثير من الناس لا يعرف النعمة إلا ما يلتذ به في دنياه، كما قال بعض السلف: من لم يعرف نعمة الله إلا في مطعمه ومشربه، فقد قل علمه، وحضر عذابه«.

فمن الناس من يرىٰ النعمة في بدنه فقط، بالأكل والشرب والنكاح، ومنهم من يرىٰ النعمة بالرئاسة والجاه ونفاذ الأمر والنهي وقهر الأعداء، ومنهم من يرىٰ النعمة في جميع الأموال والقناطير المقنطرة، وهؤلاء من جنس الكفار، يرون هذه نعمًا، وأعلىٰ من هؤلاء: من يرىٰ النعمة في الإيمان والعمل الصالح، لكن لا يرىٰ الأمر بذلك والجهاد عليه نعمة، بل يرىٰ فيه من المضار ما يوجب تركه والذين يرون هذه النعمة: منهم من لا يراه نعمة إلا مع السلامة والغنيمة، فإن جرح أو قتل بعض أولاده، أو أخذ ماله، عد ذلك مصيبة لا نعمة.

وحجة هؤلاء كلهم: أن النعمة ما يتنعم به العبد، وهذه الأمور تؤلم النفس، فلا تكون من النعم، بل من المصائب، ولا ريب أنها من المصائب، باعتبار ما يحصل فيها من الألم، ولهذا أمر بالصبر عليها، لكن لا منافاة بين كون الشيء مصيبة باعتبار، ونعمة باعتبار، فباعتبار ما يحصل له من الأذىٰ هو مصيبة، وباعتبار ما حصل به من الرحمة نعمة، وهذا لأنه إذا قيل: هذا يكفر به الخطايا ويؤجر عليها ويؤجر علىٰ الصبر عليها كانت نعمة، وهذا بمنزلة شرب المريض الدواء الكريه، هو مصيبة باعتبار مرارته، وهو نعمة باعتبار إزالته للمريض الذي هو أشد ضرراً فيه، وأدنىٰ الشرين إذا زال أعظمهما كان نعمة، ومن استعمل نعمة الله في المعاصي، كانت شراً في حقه، لأنها جرته إلىٰ العذاب الذي هو أعظم من تلك اللذة كمن أكل عسلاً فيه سم، فإن ضرر السم أعظم من حلوة العسل، والله



أعلم». انتهىٰ كلامه.



تعليق الشيخ سمير ميرابيع حفظه الله

﴿ الباب التاسع والعشرون ﴾

في ذكر سعة رحمة الله ومن مات على التوحيد

قال الله تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾[الأعراف:١٥٦].

وفي الصحيح أن النبي ﷺ قال: »**يجيء يوم القيامة ناس من المسلمين، بذنوب أمثال الجبال، فيغفرها الله لهم، ويضعها على اليهود والنصارى**» .

وقد تقدم في حديث أبي هريرة: »**لكل أحد منزل في الجنة ومنزل في النار، فالمؤمن إذا دخل الجنة، خلفه الكافر في النار، لاستحقاقه ذلك بكفره**» ، كما «**ورد في الصحيح: هذا فكاكك من النار**» .

وهذه بشارة عظيمة للمسلمين أجمعين، حتى قال الشافعي وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنهما: »هذا الحديث أرجى حديث المسلمين، لما فيه من التصريح بفداء كل مسلم«.

وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد مرفوعًا – إلى أن قال فيه -: »**فيقال أخرجوا من عرفتم -يعني من النار- فتحرم صورهم عن النار، فيخرجون خلقًا كثيراً، وقد أخذت النار إلى نصف ساقيه وإلى ركبتيه، فيقولون: ربنا ما بقي فيها أحد ممن أمرتنا به، فيقول: ارجعوا، فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقًا كثيراً إلى أن قال: ثم يقال ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقًا كثيراً**» وكان أبو سعيد الخدري يقول: إن لم تصدقوني بهذا الحديث، فاقرؤوا إن شئتم: (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ چ چچ تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا) الآية.

فيقول الله: شفعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة من النار، فيخرج منها قومًا لم يعملوا خيراً قط، قد عادوا حممًا، فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة، يقال له نهر الحياة، فيخرجون كما تخرج الحبة في حميل السيل، قال: فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتم، يعرفهم أهل الجنة، هؤلاء عتقاء الله؟ الذين أدخلهم الجنة بغير عمل عملوه، ولا خير قدموه، ثم يقال: ادخلوا الجنة، فما رأيتموه فهو لكم، فيقولون: ربنا، أعطيتنا ما لم تعط لأحد من العالمين، فيقول: لكم عندي أفضل من هذا، فيقولون: ربنا، وأي شيء أفضل من هذا؟ فيقول رضائي، فلا أسخط عليكم بعده أبداً».

وفي حديث أنس بن مالك -وذكر فيه الشفاعة، مرة بعد مرة- وأنه  قال: **«في الآخرة، فأقول: رب، أي رب، أئذن لي فيمن قال: لا إله إلا الله، فيقول: الله: وعزتي وجلالي، وعظمتي وكبريائي، لأخرجن منها من قال: لا إله إلا الله»** .

و في رواية مسلم: **«ليس ذلك لك أو إليك»** الحديث.

❁ ❁ ❁

﴿ فصل ﴾

في رحمته وسعت كل شيء

وقد أخبر الله تعالىٰ: أن رحمته وسعت كل شيء، وأنه كتب علىٰ نفسه الرحمة، وقال: «**سبقت رحمتي غضبي، وغلبت رحمتي غضبي**»، فالجنة دار رحمته، والنار دار غضبه، فثبت أن الجنة ينشأ لها خلقًا في الآخرة، ويدخلها أيضًا من دخل النار أولاً، ويدخلها الأولاد بعمل الآباء، فثبت أن الجنة يدخلها من لم يعمل خيراً قط، وثبت أن النار لا يعذب أحد فيها بغير ذنب، فرحمته واسعة.

حتىٰ إن جماعة من المفسرين، ذكروا قصة فرعون: «قال جبريل: يا محمد، لو رأيتني، وأنا أدس الطين في فيّ فرعون، مخافة أن يقول فرعون كلمة يرحمه الله بها» فهذا جبريل من أعظم رسل الملائكة، قد علم سعة رحمة الله، ففعل ذلك مخافة إدراك الرحمة له، مع أنه قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٤﴾  [النازعات:٢٤].

❁ ❁ ❁



﴿ فصل ﴾

في أن من مات موحداً داخل الجنة

ومما ينبغي أن يعلم، أن مذهب أهل السنة والجماعة من السلف والخلف، أن من مات موحداً أدخل الجنة قطعاً علىٰ كل حال، فإن كان سالماً من المعاصي، كالصغير، والمجنون الذي اتصل جنونه بالبلوغ، والتائب توبة نصوحاً صحيحة من الشرك أو غيره من المعاصي إذا لم يحدث معصية بعد توبته، ومن نشأ في عبادة الله ولم يقارف معصية أصلاً، كل هؤلاء يدخلون الجنة ولا يدخلون النار لكنهم يردونها علىٰ الخلاف المعروف في الورود.

والصحيح - إن شاء الله تعالىٰ - علىٰ ما ذكره جماعة من العلماء، أن المراد بالورود، المرور علىٰ الصراط وهو منصوب علىٰ ظهر جهنم، أجارنا الله من حرها وبردها.

وأما من مات من أهل المعاصي، أو له معصية كبيرة ولم يتب منها، فهو داخل تحت مشيئة الله، إن شاء عذبه بمقدار ذنبه، أو القدر الذي يريده ثم يدخله الجنة، وإن شاء عفا عنه مطلقاً، فلا يخلد أحد في النار مات علىٰ التوحيد، ولو عمل من المعاصي ما عمل، وهذا من أحسن ما يتسلىٰ به من مات له قريب أو صاحب من أهل المعاصي، ومات وما يعلم هل تاب من المعاصي أم لا؟

قال أبو ذكريا النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: »وقد تظاهرت الأدلة من الكتاب والسنة، وإجماع من يعتد به، علىٰ هذه القاعدة، وتواترت بهذه نصوص تحصل العلم القطعي بذلك«. انتهىٰ كلامه.

ويؤكد ذلك ما ثبت في الصحيح، من حديث عثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة**».

قال القاضي عياض: »اختلف الناس فيمن عصىٰ الله تعالىٰ من أهل الشهادتين، فقالت المرجئة: لا تضره المعصية مع الإيمان.

وقالت الخوارج: تضره ويكفر بها.

وقالت المعتزلة: يخلد في النار إذا كانت كبيرة، ولا يوصف بأنه مؤمن ولا كافر، لكنه فاسق.

وقالت جماعة من العلماء: بل هو مؤمن، وإن لم يغفر له، وإن عذب، فلا بد من إخراجه من النار، وإدخاله الجنة«.

قال: »وهذا الحديث حجة علىٰ الخوارج والمعتزلة، وأما المرجئة، فإن احتجت بظاهره، قلنا: نحمله علىٰ أنه غفر له وخرج من النار بالشفاعة، ثم أدخل الجنة ويكون معنىٰ قوله عليه السلام: »دخل الجنة«: أي دخلها بعد مجازاته بالعذاب.

وهذا لا بد من تأويله، لما جاء في ظواهر كثيرة، من عذاب بعض العصاة«. انتهىٰ كلامه.

ومن هذا الباب، ما ثبت في الصحيح، أن أبا الأسود الديلي حدثه أبو ذر قال: أتيت رسول الله ﷺ، وهو نائم علىٰ قميص أبيض، ثم أتيته فإذا هو نائم، ثم أتيته وقد استيقظ، فجلست إليه، فقال: «**ما من عبد قال: لا إله إلا الله، ثم مات علىٰ ذلك، إلا دخل الجنة**»، قلت: وإن زنىٰ وإن سرق؟ قال: «**وإن زنىٰ وإن سرق**»، ثلاث مرات، ثم قال في الرابعة: «**علىٰ رغم أنف أبي ذر**»، قال: فخرج أبو ذر، وهو يقول: «وإن رغم أنف أبي ذر».

وفيه رد علىٰ الخوارج، وعلىٰ المعتزلة بتخليد أهل الكبائر في النار.

وفي رواية للبخاري: أن رسول الله ﷺ قال: «**أتاني جبريل، فقال: من مات من أمّتك لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة. قلت: وإن زنىٰ وإن سرق قال: وإن زنىٰ وإن سرق**»



هو حديث أبي ذر.

وفي الصحيح من حديث جابر، أن النبي ﷺ قال: «**من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة، ومن مات يشرك بالله شيئًا دخل النار**» وفي لفظ: »**من لقي الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة**».

وفي رواية: »**من قال لا إله إلا الله دخل الجنة**» و «**في لفظ: من شهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله دخل الجنة**».

وفي حديث معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة**» .

وعنه أيضًا مرفوعًا: «**من لقي الله، لا يشرك به شيئًا دخل الجنة**» .

وفي رواية: «**ما من عبد، يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، إلا حرمه الله على النار**» .

وزاد في صحيح البخاري ومسلم من حديث عبادة بن الصامت: «**على ما كان من عمل**».

وفي صحيح البخاري ومسلم من حديث أنس، أن نبي الله ﷺ -ومعاذ بن جبل رديفه على الرحل- قال: «**يا معاذ، قال: لبيك وسعديك يا رسول الله، قال: يا معاذ قال: لبيك وسعديك يا رسول الله، قال: يا معاذ قال: لبيك وسعديك يا رسول الله، قال: ما من عبد، يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، إلا حرمه الله على النار.**

قال: أو لا أخبر بها الناس فيستبشروا؟ قال: إذاً يتكلوا»، فأخبر بها عند موته تأثمًا - يعني مخافة الإثم -.

وفي لفظ مسلم من حديث عبادة، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**من شهد أن لا إله إلا الله، وان محمداً رسول الله، حرم الله عليه النار**» .



وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قلت: يا رسول الله، من أسعد الناس بشفاعتك؟ فذكره، قال: »**أسعد الناس بشفاعتي، من قال: لا إله إلا الله خالصًا من قبل نفسه**».

رواه البخاري.

وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعةً لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئًا**». رواه مسلم.

وفي لفظ له: «**حرم الله علىٰ النار من قال لا إله إلا الله**».

وقد ورد في ذلك عدة أحاديث، وغالب هذه الأحاديث سردها مسلم في صحيحه في باب واحد، في باب الدليل علىٰ صحة إسلام من حضره الموت.

لكن قال سعيد بن المسيب، عند سماعه هذه الأحاديث: »إن هذا قبل نزول الفرائض والأمر والنهي«.

وهذا القول عن سعيد بن المسيب رَحِمَهُٱللَّهُ ليس بشيء.

وقال بعض العلماء: هو خطأ، لأن راوي أحد هذه الألفاظ أبو هريرة، وهو متأخر الإسلام، اسلم عام خيبر، سنة سبع بالاتفاق، وكانت أحكام الشريعة مستقرة، كالصلاة والزكاة والصيام ونحوها، فعلم ضعف هذا القول، والله تعالىٰ أعلم.

وقال بعض العلماء: هي مجملة تحتاج إلىٰ شرح، ومعناه: من قال الكلمة وأدىٰ حقها وفريضتها. وهذا قول الحسن البصري.

وقيل: إن ذلك لمن قالها عند الندم والتوبة ومات علىٰ ذلك، وهذا قول البخاري.

وقد تقدم في أول الباب حملها علىٰ ظاهرها، وأن مذهب السلف والخلف من الفقهاء وأهل الحديث، علىٰ أن من مات موحداً دخل الجنة، وإن كان من



أهل المعاصي، وأنه داخل تحت المشيئة. والله تعالىٰ أعلم.

وعن أبي جعفر، قال: «لما حضر أبا زرعة الموت، وعنده أبو حاتم، ومحمد بن مسلم، والمنذر بن شاذان، وجماعة من العلماء، هابوا أن يلقنوه الشهادة، فقال بعضهم لبعض: تعالوا نذكر الحديث، فقال محمد بن مسلم: حدثنا الضحاك، عن عبد الحميد بن جعفر، عن صالح، ولم يجاوز، وقال أبو حاتم: حدثنا بندار، عن أبي عاصم، عن عبد الحميد بن جعفر، عن صالح، ولم يجاوز.

والباقون سكوت، فقال أبو زرعة: ثنا بندار، عن أبي عاصم، عن عبد الحميد بن جعفر عن صالح بن أبي عريب، عن كثير بن مرة الحضرمي، عن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة**» . ثم توفي في ساعته رحمة الله عليه.

وعن عبيد بن عياش، قال: «لما مات النوار امراة الفرزدق، شهدها الحسن البصري، فلما سوي عليها التراب: وثب الفرزدق لينصرف، فقال للحسن: يا أبا سعيد، أما تسمع ما يقول الناس؟ قال: وما يقول الناس؟ قال: يقولون: اجتمع في هذه الجنازة خير الناس وشر الناس، يعنونك ويعنونني، فقال الحسن: ما أنا بخيرهم، وما أنت بشرهم، ولكن ما أعددت لهذا اليوم؟ فقال: يا أبا سعيد، شهادة أن لا إله إلا الله، فبكىٰ الحسن، ثم التزم الفرزدق فقال: لقد كنت من أبغض الناس إلي، وإنك اليوم من أحب الناس إلي».



﴿الباب الثلاثون﴾

في فضل الزهد في الدنيا والتسلية عنها والرغبة في الآخرة

قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ [النساء].

فالاستمتاع بالدنيا قليل، ومتعتك بها قليل من قليل، وثواب الآخرة خير وأفضل لمن اتقىٰ المعاصي وأقبل علىٰ الطاعات.

ومما ينبغي أن يعلم: أن هذا الباب من أنفع الأبواب لمن تدبره، فإن الدنيا دار قلعة وزوال، ومنزل نقلةو ارتحال، ومحل نائبه وامتحان، ومتاع غرور وافتتان، فلا ييأس علىٰ ما فات منها، ولا يفرح علىٰ ما وجد منها، ولا يجزع علىٰ ولد أو نفس تموت، ولا يحزن علىٰ أمر يفوت.

عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي، فقال: «**كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل**» .

وكان ابن عمر يقول: »إذا أمسيت، فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت، فلا تنظر السماء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك«.رواه البخاري.

قال جماعة من العلماء في تفسير هذا الحديث: »لا تركن إلىٰ الدنيا، ولا تتخذها وطنًا، ولا تحدث نفسك بطول البقاء فيها، ولا بالاعتناء بها، ولا تغتر بها، فإنها غرارة خداعة، ولا تتعلق إلا بما يتعلق به الغريب في غير وطنه، ولا تشتغل فيها إلا بما يشتغل به الغريب الذي يريد الذهاب إلىٰ أهله، وبالله فاستعن«.

وعن سهل بن سعد الساعدي، قال: جاء رجل إلىٰ النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، دلني علىٰ عمل، إذا عملته أحبني الله، وأحبني الناس، فقال: «**ازهد في الدنيا، يحبك الله، وازهد فيما عند الناس، يحبك الناس**».رواه ابن ماجة وغيره بإسناد جيد. ولوائح



الصحة ظاهرة عليه.

وعنه أيضًا رفعه إلىٰ النبي ﷺ، قال: «**لو أن الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة، ما سقىٰ كافر منها شربة ماء**». رواه الترمذي، وقال حديث صحيح.

وعن أبي هريرة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ألا إن الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها، إلا ذكر الله وما والاه، وعالمًا ومتعلمًا**».رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

وروىٰ الترمذي أيضًا عن كعب بن عياض، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لكل أمة فتنة، وفتنة أمتي المال**».قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وروىٰ الترمذي، وحسنه وصححه عن عثمان، أن رسول الله ﷺ قال: «**ليس لابن آدم حق في سوىٰ هذه الخصال: بيت يسكنه، وثوب يواري عورته، وجلف الخبز والماء**».

قال ابن فارس في مجمله: وعاء الشيء جلفه ـ قال الترمذي: سمعت أبا داود يقول: سمعت النضر بن شميل يقول: الجلفة: الخبز ليس معه إدام.

وقال غيره: هو غليظ الخبز، وقال الهروي: والمراد به هنا وعاء الخبز، كالجوالق والخرج ونحوه، والله أعلم.

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن الشخير، قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو يقرأ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ قال: «**يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت؟**» .

وفي صحيح البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد، قال: جلس رسول الله ﷺ علىٰ المنبر، وجلسنا حوله، فقال: «**إن مما أخاف عليكم بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها**» .

وفي صحيح مسلم عنه أيضًا، أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعلمون؟ فاتقوا الدنيا واتقوا النساء**».

وفي مسلم أيضًا عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يؤتىٰ بأنعم**

أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيصبغ في النار صبغة، ثم يقال: يا ابن آدم، هل رأيت خيراً قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يا رب، ويؤتى بأشد الناس بؤسًا في الدنيا من أهل الجنة، فيصبغ في الجنة صبغة، فيقال له: يا ابن آدم، هل رأيت بؤسًا قط؟ هل مر بك شدة قط؟ فيقول: لا والله، ما مر بي بؤس قط، ولا رأيت شدة قط».

وفي مسلم أيضاً من حديث جابر بن عبد الله، أن رسول الله ﷺ مر بالسوق، والناس كنفتيه، فمر بجدي أسك ميت، فتناوله، فأخذ بأذنه، فقال: «**أيكم يحب أن هذا له بدرهم؟ فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء، وما نصنع به؟ قال: تحبون أنه لكم؟ قالوا: والله، لو كان حيًا كان عيبًا أنه أسك، فكيف وهو ميت؟ فقال: والله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم**» .قوله: »كنفتيه« أي من جانبيه، »والأسك« الصغير الأذن.

وعن شهر بن حوشب، عن عبادة بن الصامت، قال: أراه رفعه النبي ﷺ قال: »**يجاء بالدنيا يوم القيامة، فيقال: ميزوا ما كان منها لله عز وجل، وألقوا سائرها في النار**». رواه ابن أبي الدنيا.

وروي أيضًا عن عبادة بن العوام، عن هشام أو عوف، عن الحسن مرسلاً، أن النبي ﷺ قال: »**حب الدنيا رأس كل خطيئة**».

واعلم، أنه من أحب دنياه، أضر بآخرته، ومن أحب آخرته، أضر بدنياه، فآثروا ما يبقى على ما يفنى.

وعن الحسن مرسلاً، أن النبي ﷺ قالوا له: يا رسول الله، من خيرنا؟ قال: «**أزهدكم في الدنيا، وأرغبكم في الآخرة**».

وقال رسول الله ﷺ: «**من زهد في الدنيا، أسكن الله الحكمة قلبه، وأطلق بها لسانه، وبصره عيوب الدنيا داءها ودواءها، وأخرجه منها سالمًا مسلمًا إلى دار السلام**». رواه ابن أبي الدنيا.



﴿ فصل ﴾

في العَجب ممن يسعى لدار الغرور

ومن العجب كل العجب، يصدق بدار الخلود، وهو يسعى لدار الغرور، فمن أحبه الله حماه عن الدنيا، كما يحمي أحدكم مريضه عن الماء.

وقد ورد في الحديث مرفوعًا: «**إن الله لم يخلق خلقًا أبغض إليه من الدنيا، وإنه منذ خلقها، لم ينظر إليها**».

وروى ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا: قال مالك بن دينار: قالوا لعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا أبا الحسن، صف لنا الدنيا؟ قال: »أطيل أم اقصر؟« قالوا: بل أقصر، قال: »حلالها حساب، وحرامها النار«.

وعنه أيضًا: قالوا: يا أمير المؤمنين، صف لنا الدنيا؟ قال: »وما أصف لكم من دار؟ من صح فيها أمن، ومن سقم فيها ندم، ومن افتقر فيها حزن، ومن استغنى فيها فتن، في حلالها الحساب، وفي حرامها النار».

وروي عن يونس بن عبيد، قال: «ما شبهت الدنيا إلا كرجل نائم، فرأى في منامه ما يكره وما يحب، فبينما هو كذلك إذ انتبه».

وقال الحسن بن علي: «الدنيا ظل زائل».

وقال أبو سليمان الداراني: «إذا كانت الآخرة في القلب: جاءت الدنيا تزحمها، وإذا كانت الدنيا في القلب، لم تزحمها الآخرة، لأن الآخرة كريمة، والدنيا لئيمة«.

وقال الأوزاعي: سمعت بلالاً بن سعيد يقول: »والله لكفى به ذنبًا، أن الله عز وجل يزهد في الدنيا ونحن نرغب فيها، فزاهدكم راغب، ومجتهدكم مقصر، وعالمكم جاهل».





﴿ فصل ﴾

في أن شرور الدنيا كأحلام نوم

واعلم أن شرور الدنيا كأحلام نوم، أو كظل زائل، إن أضحكت قليلاً أبكت كثيراً، وإن سررت يومـًا أو أيامـًا ساءت أشهراً وأعوامـًا، وإن متعت قليلاً منعت طويلاً، وما حصلت للعبد فيها سروراً إلا خبأت له أضعاف ذلك شروراً.

قال ابن مسعود: «لكل فرحة ترحة وما ملئ بيت فر حـًا إلا ملئ ترحـًا».

قال ابن سيرين: «ما من ضحك إلا يكون بعده بكاء».

وقالت هند بنت النعمان: «لقد رأيتنا، ونحن من أعز الناس، وأشدهم ملكـًا، ثم لم تغب الشمس، حتىٰ رأيتنا ونحن أذل الناس، وإنه حق علىٰ الله عز وجل، أن لا يملأ داراً حبرة، إلا ملأه عبرة».

وسألها رجل أن تحدثه عن أمرها، فقالت: «أصبحنا ذات صباح، وما في العرب أحد إلا يرجونا، ثم أمسينا، وما في العرب أحد إلا يرحمنا».

وبكت أختها حرقة بنت النعمان يومـًا وهي في عزها، فقيل لها: ما يبكيك؟ فذكر أنها قالت: »رأيت كثرة أهلي وسرورهم، وقلما املأت دار سروراً إلا املأت حزنـًا«.

قال إسحاق بن طلحة: دخلت عليها يومـًا فقلت لها: »كيف رأيت عبرات الملوك؟ فقالت: ما نحن فيه اليوم خير مما كنا فيه بالأمس، إنا نجد في الكتب: أنه ليس من أهل بيت يعيشون في حبرة إلا سيعقبون بعدها عبرة، وإن الدهر لم يظهر لقوم بيوم يحبونه إلا بطن لهم بيوم يكرهونه، ثم قالت:

فبينا نسوس الناس، والمر أمرنا *** إذ نحن فيهم سوقة نتنصف

فأف لدنيا، لا يدوم نعيمها *** تقلب تارات بنا أو تصرف



وفي الحديث مرفوعـًا: «**ما مثلي ومثل الدنيا، إلا كراكب سار في يوم صائف، فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار، ثم راح وتركها**». رواه ابن أبي الدنيا.

وروىٰ أيضـًا: قال عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «**ويل لصاحب الدنيا، كيف يموت ويتركها؟ يأمنها وتغره، ويثق بها وتخذله، ويل للمغترين، كيف أرقهم ما يكرهون، وفارقهم ما يحبون، وجاءهم ما يوعدون، ويل لمن الدنيا همته، والخطايه عمله، كيف يفتضح غدا بذنبه؟!**».

وروىٰ ابن أبي الدنيا بإسناده عن وهب بن منبه، قال عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «بحق أقول لكم، كما ينظر المريض إلىٰ طيب الطعام ولا يلتذ من شدة الوجع، كذلك صاحب الدنيا لا يلتذ بالعبادة، ولا يجد حلاوتها، مع ما يجد من حب الدنيا، إن الدابة إذا لم تركب وتمتهن تصعبت وتغير خلقها، كذلك القلوب، إذا لم ترق بذكر الموت، ودأب العبادة، تقسو وتغلظ».



﴿ فصل ﴾

في اللهم اجعل رزق آل محمد قوتًا

وثبت في الصحيح مرفوعًا: «**اللهم اجعل رزق آل محمد قوتًا**».

قال أهل اللغة: »القوت«: ما يسد الرمق، وفيه دلالة علىٰ فضيلة التقليل من الدنيا، والاقتصار علىٰ القوت منها، والدعاء بذلك، والله أعلم، فإن الدخول في الدنيا، والميل إليها علىٰ خطر عظيم، كما تقدم في الصحيح مرفوعًا: «**إن مما أخاف عليكم بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا**» قال العلماء: في التحذير من الاغترار بالدنيا، والنظر إليها، والمفاخرة بها، فالدنيا، وإن أقبلت علىٰ الشخص من وجه حل، يخاف عليه الفتنة، والاشتغال بها عن كمال الإقبال علىٰ الآخرة، فإن وفق لإعطاء المسكين واليتيم وابن السبيل، وصرفه في وجوه البر، كان من الفائزين، وإلا كان من الهالكين.

وقد ثبت في صحيح مسلم عن المستورد بن شداد الفهري، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**ما الدنيا في الآخرة، إلا مثل مايجعل أحدكم إصبعه في اليم، فلينظر بما ترجع إليه**».

وقال معاوية: سمعت ـ علىٰ هذا المنبر ـ رسول الله ﷺ يقول: «**إنما بقي من الدنيا بلاء وفتنة، وإنما مثل عمل أحدكم، كمثل الوعاء، إذا طاب أعلاه طاب أسفله، وإذا خبث أعلاه خبث أسفله**».

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «من زهد في الدنيا، هانت عليه المصائب، ومن ارتقب الموت، سارع في الخيرات».

وقال الحسن البصري: «والذي نفسي بيده، لقد أدركت أقوامًا، كانت الدنيا عليهم أهون عليهم من التراب الذي تمشون علي».



ثـم علامـة الشـقاء قسـوة القلـب، وجمـود العيـن، وطـول الأمـل، والحـرص علىٰ الدنيـا».

وقـال الفضيـل بـن عيـاش: «علامـة السـعادة اليقيـن في القلـب، والـورع في الدنيـا، والزهـد في الدنيـا، والحيـاء والعلـم».

وقـال الفضيـل أيضـًا: «لـو أن الدنيـا بحذافيرهـا عرضـت علـي حـلالاً لا أحاسـب بهـا في الآخـرة، لكنـت أتجنبهـا كمـا يتجنـب أحدكـم الجيفـة - إذا مـر بهـا - أن تصيـب ثوبـه».

وقـال أبـو الهاشـم الزاهـد: «خلـق الله الـداء والـدواء، فالـداء الدنيـا، والـدواء تركهـا».





﴿ فصل ﴾

في أن الدنيا دار ممر

حضر بعض الرؤساء صلاة الجمعة، وبه مرض لا يحتمل معه تطويل الخطبة، فصعد الخطيب المنبر، فقال: الحمد لله رب العالمين، وصلواته علىٰ أشرف النبياء والمرسلين، أما بعد: فإن الدنيا دار ممر والآخرة دار مقر، فخذوا لمقركم من ممركم، ولا تهتكوا أستاركم عند من لا تخفىٰ عليه أسراركم، وأخرجوا الدنيا من قلوبكم، قبل أن تخرج منها أبدانكم، أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم.

فما أبلغ هذه الخطبة وأفصحها، وأوجزها! فعمر الدنيا والله قصير، وأغنىٰ غني فيها فقير، وكأني بك في عرصة الموت وقد استنشقت ريح الغربة قبل الرحيل، ورأيت أثر اليتم في الولد قبل الفراق، فتيقظ إذن من رقدة الغفلة، وانتبه من السكرة، واقلع حب الدنيا من قلبك، فإن العبد إذا أغمض عينه وتولىٰ، تمنىٰ الإقالة فقيل كلا.

قال أبو عمران الجوني: »مر سليمان بن داود عليهما السلام في موكبه، والطير تظله، والجن والإنس عن يمينه وشماله، قال: فمر عابد من عباد بني إسرائيل، فقال: والله يا ابن داود لقد آتاك الله ملكًا عظيمًا!! قال: فسمع سليمان كلمته فقال: »تسبيحة في صحيفة مؤمن خير مما أعطي ابن داود، وما أعطي ابن داود يذهب، والتسبيحة تبقىٰ«.





﴿ فصل ﴾

في أن هذه الدار رحلة

من بذل وسعه في التفكير التام، علم أن هذه الدار رحلة، فجمع للسفر رحلة ويعلم أن مبدأ السفر من ظهور الآباء إلىٰ بطن الأمهات، ثم إلىٰ الدنيا، ثم إلىٰ القبر، ثم إلىٰ الحشر، ثم إلىٰ دار الإقامة الأبدية، فدار الإقامة هي دار السلام من جميع الآفات، وهي دار الخلود، والعدو سبانا إلىٰ دار الدنيا، فنجتهد في فكاك أسرنا، ثم في حث السير إلىٰ الوصول إلىٰ دارنا الأولىٰ.

وفي مثل هذا قيل:

فحي علىٰ جنات عدن فإنها *** منازلك الأولىٰ وفيها المخيم

ولكننا سبي العدو فهل ترىٰ *** نعود إلىٰ أوطاننا ونسلم

وليعلم أن مقدار السير في الدنيا يسير ويقطع بالأنفاس، ويسير بالإنسان سير السفينة لا يحس بسيرها وهو جالس فيها، كما قيل:

إنما هذه الحياة متاع *** فالغوي الشقي من يصطفيها

مامضىٰ فات والمؤمل غيب *** ولك الساعة التي أنت فيها

ولا بد له في سفره من زاد، ولا زاد إلىٰ الآخرة إلا التقوىٰ، فلا بد من تعب الشخص والتصبر علىٰ مرارة التقوىٰ، لئلا يقول وقت السير: ارجعون، فيقال: كلا.

فليتنبه الغافل من كسل مسيره، فإن الله تعالىٰ يريه في قطع مسافة سفره آيات يرسلها تخويفًا لعباده، لئلا يميلوا عن طريقهم المستقيم، ونهجهم القويم، فمن مالت به راحلته عن طريق الاستقامة، فرأىٰ ما يخاف منه، فليرغب إلىٰ الله بالرجوع إليه عما ارتكبه من السبل فيتوب من معصيته، ويبكي من قسوته، فإذا

انتبه من رقدة كسله، علم أن الدنيا دار غرور طبعت على كدر.

كما روى ابن أبي الدنيا قال: أنشدني الحسن بن السكن:

حياتك بالهم مقرونة *** فما تقطع العيش إلا بهم

لذاذات دنياك مسمومة *** فما تأكل الشهد إلا بسم

إذا تم أمر بدا نقصه *** توقع زلولاً إذا قيل تم

وكما قيل في المعنى:

حكم المنية في البرية جار *** ما هذه الدنيا بدار قرار

بينا يرى الإنسان فيها مخبراً *** حتى يرى خبراً من الأخبار

طبعت على كدر وأنت تريدها *** صفواً من الأقذاء والأكدار

وقال بعض السلف: «احذروا دار الدنيا فإنها أسحر من هاروت وماروت، فإنهما يفرقان بين المرء وزوجه، والدنيا تفرق بين العبد وربه».

وذكر ابن أبي الدنيا هذا الأثر مرفوعًا، قال جعفر بن سليمان: سمعت مالكًا يقول: «اتقوا السحارة فإنها تسحر قلوب العلماء -يعني الدنيا-».

وذكر ابن أبي الدنيا بإسناده إلى الحسن البصري أنه كتب إلى عمر بن عبد العزيز: «أما بعد فإن الدنيا دار ظعن ليست بدار إقامة، وإنما أنزل إليها آدم عقوبة، فاحذرها يا أمير المؤمنين، فإن الزاد منها تركها، والغنى منها فقرها، لها في كل حين قتيل، تذل من أعزها، وتفقر من جمعها، هي كالسم يأكله من لا يعرفه وهو حتفه فكن كالمداوي جراحته، يحتمي قليلاً، مخافة ما يكره طويلاً، ويصبر على شدة الدواء، مخافة طول البلاء، فاحذر هذه الدار الغرارة الحيالة الخداعة، التي ازينت بخدعها وفتنت بغرورها، وختلت بآمالها، وتشرفت لخطابها، فأصبحت كالعروس المجلية، فالعيون إليها ناظرة، والقلوب عليها والهة، والنفوس لها عاشقة، وهي لأزواجها كلهم قاتلة، فلا الباقي بالماضي معتبر، ولا الآخر على



الأول مزدجر، ولا العارف بالله عز وجل حين أخبر عنها مدكر، فعاشق لها قد ظفر منها بحاجته فاغتر وطغىٰ ونسي المعاد، فشغل فيها لبه حتىٰ زالت عنها قدمه، فعظمت ندامته، وكثرت حسرته، فخرج بغير زاد، وقدم علىٰ غير مهاد، فاحذرها يا أمير المؤمنين، وكن أسر ما تكون فيها أحذر ما تكون لها، فإن صاحب الدنيا كلما اطمأن منها إلىٰ سرور، أشخصه إلىٰ مكروه، قد وصل الرخاء منها بالبلاء، وجعل البقاء فيها إلىٰ فناء، فسرورها مشوب بالحزن، لا يرجع منها ما ولىٰ فأدبر، ولا يدرىٰ ما هو آت فينتظر أما نيها كاذبة، وآمالها باطلة، وصفوها كدر، وعيشها نكد، وابن آدم فيها علىٰ خطر، ولقد عرضت علىٰ نبيك محمد ﷺ بمفاتيحها وخزائنها، فأبىٰ أن يقبلها، كره أن يحب ما أبغض خالقه، أو يرفع ما وضع مليكه، فزواها عن الصالحين اختياراً، وبسطها لأعدائه اغتراراً«.

جاءت الرواية أنه تبارك وتعالىٰ قال لموسىٰ عليه السلام: »إذا رأيت الغني مقبلاً فقل: ذنب عجلت عقوبته، وإذا رأيت الفقر مقبلاً فقل: مرحبًا بشعار الصالحين«.

والحمد لله رب العالمين

وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيراً

وفي آخر المخطوط التي تمت الطباعة وفقًا له ما يأتي بخط المؤلف

علقها مؤلفًا محمد بن محمد بن محمد المنبجي الحنبلي

كان الله له وسامحه بمنه وكرمه

من نسخة أصله في رجب الفرد

سنة سبع وسبعين وسبعمائة

أحسن الله

عاقبتها

تمت